تناسق الدرر في تناسب السور

للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

دراسة وتحقيق

عبد القادر أحمد عطا



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

تَنَاسُقُ الدُّرَرِ
فِي
تَنَاسُبِ السُّوَرِ

للحافظ جلال الدّين السّيوطي

دراسة وتحقيق

عبد القادر احمد عطا

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بيروت - لبنان

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le

مقدمة في
ترتيب القرآن

ترتيب النزول:

يختلف ترتيب القرآن في النزول عن ترتيبه في المصحف اختلافاً كبيراً ومنشأ هذا الإختلاف هو اختلاف الهدف المقصود من كلا الترتيبين.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم نزل منجماً على رسول الله ﷺ في عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين سنة، أو خمس وعشرين سنة، على حسب الخلاف في اقامته ﷺ بمكة بعد البعثة.

والذي يلقي الضوء على حكمة أنزاله مفرقاً في هذه المدة الطويلة ما أخرجه البخاري عن عائشة قالت: [انما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر. لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل: لا تزنوا. لقالوا: لا ندع الزنا أبداً]. وإذا تدبرنا الناسخ والمنسوخ من مكي القرآن تبين لنا مدى علم عائشة رضي الله عنها بحكمة ترتيب النزول.

فالمقصود الرئيسي هو مراعاة حاجة الدعوة إلى الدين الجديد من الوجهة التربوية الالهية الخالصة، والتدرج بالناس شيئاً فشيئاً حتى يتم المراد من اكمال الدين، وتمام النعمة، دون أن تكون هناك عوائق نفسية تعوق الانسان السوي عن متابعة التنزيل، وتدبر معانيه، والاقتناع بمراميه، والعمل بما تضمنه من أحكام.

وآية ذلك أن الفترة المكية على طولها لم تكن التعاليم القرآنية فيها متجهة إلا إلى بناء العقيدة وترسيخها في أعماق الوجدان، ولم يشرع من العبادات فيها إلا الصلاة، باعتبارها تجديداً دائماً ومتكرراً لقوة العقيدة وفاعليتها، وما ذاك إلا لأن العقيدة هي قوة الدفع للانسان المؤمن نحو الطاعة المطلقة للّه في الأمر والنهي، وآية صدق هذا المنهج التربوي: ما أنجزه الرعيل الأول في المدينة من أعمال عظمى، يعجز عنها انسان ذو عقيدة لا تتسم بالأصالة والرسوخ والعمق واليقين.

فالقرآن على منهج النزول هو منهج دعوة لتأسيس دين بين قوم لا يدينون بالحق، ومنهج تربية لأمة مختارة ومصطفاة لنشر هذا الدين بمختلف الوسائل المشروعة للدعوة، ومنها الجهاد بالسيف الذي نسخ كل الوسائل السابقة، ومنها الصبر على ما يصيب الدعاة، والدعوة باللين والحسنى.

ومن أسباب تفريق القرآن في النزول ما ذكره اللّه تعالى رداً على الكفار **﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾** .أي: كما أنزلت الكتب على من قبله من الرسل. فأجابهم اللّه تعالى بقوله لرسوله ﷺ: **﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾**

وتثبيت فؤاد النبي ﷺ فسره أبو شامة بقوله: ان الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب، وأشد عناية بالمرسل اليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك اليه، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان، لكثرة لقائه جبريل.

ولا يخرج هذا التعليل عن المصلحة العليا للدعوة الناشئة، ولكن في شخص الداعي الأعظم، بما يتناسب مع المهمة العظمى التي أمر أن يصدع بها، ويجاهد الأمم من أجل إرساء قواعدها. وفي قوة الداعي قوة لأتباعه ما في ذلك جدال.

كما ان هذا المنهج النزولي كذلك فيه تثبيت لأفئدة المؤمنين، باثارة تطلعاتهم

إلى الوحي، وإلى ما ينزل به حلاً لمشكلاتهم، وفصلاً في قضاياهم، حيث كان يتوقف فيها الرسول كثيراً حتى ينزل فيها قرآن، وفي ربط الوجدان والعقل بالوحي على هذه الصورة مذاكرة نفسية للعقيدة أبلغ من كل كلام في موازين التربية التعليمية في أسمى قيمتها ونجاحها.

وقالوا كذلك أن تثبيت فؤاده ﷺ بانزال القرآن مفرقاً: أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ففرق عليه ليثبت عنده حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء فإنه كان قارئاً كاتباً.

وقالوا: ان القرآن فيه الناسخ والمنسوخ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقاً.

وقالوا: ان منه ما كان جواباً لسؤال، وما كان انكاراً على قول أو فعل، فنزله جبريل بجواب كلام العباد وأفعالهم، وقد فسر ابن عباس بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿**ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تأويلاً**﴾.

ولا تخرج هذه الأقوال الثلاثة كذلك عن مصلحة الدعوة في حفظ النصوص القرآنية التي تعتبر دستور الدين الجديد، وفي الاستجابة للمتطلبات الواقعية لتربية خير أمة أخرجت للناس، إقراراً لما يتفق مع قوانين الفطرة الثابتة، وتقويماً لما انحرف عنها بتأثير الهوى وتقاليد الجماعة الموروثة التي لا تخضع للحق من حيث هو حق.

ومن أهداف نزول القرآن مفرقاً: تجدد الحوافزالتي قررها الله تعالى للدعاة في كل العصور والأقطار، وللدعاة الأوائل بصفة خاصة، إذ كان هناك حوافز للدعاة لا يظهر أثرها إلا في الدار الآخرة، كالصبر على الأذى، وتوفية الصابرين أجرهم بغير حساب، وجزاء الشهداء عند الله، وما شابه ذلك من الحوافز. وكان هناك حوافز تبشر المؤمنين الدعاة على قلتهم وضعفهم في المال والسلاح بالانتصار واذلال جبروت العدو، حتى يكون ذلك أدعى إلى صلابة العزائم، والإصرار في المضي على الطريق، لاسيما وأن تلك الحوافز كلها قد تحققت من الوجهة القرآنية، فانعكست في السنة النبوية تعميقاً وتوسيعاً لمفهومها،

بالبشريات التي زفها الرسول ﷺ لأتباعه بالانتصار على مملكة فارس، وبدوام النصر والفتح ما عاشت شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

كان الرسول وأصحابه يلوذون بالصبر على الأهوال في مكة، فأنزل الله تعالى: ﴿**سيهزم الجمع ويولون الدبر**﴾. قال عمر بن الخطاب: فقلت: أي جمع هذا؟ فلما كان يوم بدر، وانهزم المشركون نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتا بالسيف ويقول: [سيهزم الجمع ويولون الدبر]. فكانت ليوم بدر.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿**لا أقسم بهذا البلد. وأنت حل بهذا البلد.**﴾. فهذه السورة مكية، وقد نزلت والمسلمون في كرب الاضطهاد والحصار الاقتصادي الرهيب تبشرهم بالفتح في صورة احلال البلد الحرام لقائد الدعوة ﷺ. وقد ظهر أثر هذا الفتح وذلك الحل في قوله ﷺ عن مكة: [أحلت لي ساعة من نهار].

بل لقد كان هناك حافز أشمل من كل تلك الحوافز، وأشد قوة في رفع الهمم ودفعها إلى اقتحام أشق العقبات، وذلك في آية النحل التي تبشر تلك القلة المستضعفة في مكة بملك عظيم، وعلاقات دولية واسعة، شرع لهم عند قيامه ألا ينقضوا العهود ايثار للمال أو القوة في قوله تعالى:

﴿**ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة**﴾.

ومعذلك فلم تفقد هذه الآية فاعليتها في مكة، بل كان التدريب على تحقيقها ماضياً في تنفيذها عند بناء التجمعات الأولى ضد الكفر، على ضيق نطاقها، ولكنه وسيلة تعليمية ناجحة كل النجاح على أي حال، عمقتها السنة في التبشير بالفرج والنصر.

لم يكن من سواء السبيل أذن أن ينزل القرآن جملة على رسول الله ﷺ وهو يؤسس دعوة الرسالة الخاتمة، ويقيم صرح الدين الشامل للناس جميعاً، ويربي

جيلاً فريداً من فقهاء القرآن، وحفاظ الشريعة، وشيوخ الدعوة، وفرسان الجهاد، والمعلمين الاثبات لكافة الأجيال.

وكان من عيون الحكمة أن ينزل القرآن هكذا منجماً يجمع بين الحوافز وقوى الدفع الأخرى، كما يتيح الفرصة الكاملة للدعاة الأوائل أن يستوعبوا القرآن حفظاً ودرساً وسلوكاً، وتربية للضمائر والقوى الوجدانية الأخرى اللازمة لنجاح خير أمة أخرجت للناس.

وفي إنزاله منجماً كذلك دليل لا يرقى اليه الشك على أن القرآن كلام الله، وليس من كلام البشر. وذلك: أن السورة كانت تنزل بمكة إلا آيات منها، كسورة الأنعام، قال ابن عباس: نزلت بمكة، إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة: ﴿**هذان خصمان...**﴾ الآيات الثلاث. وسورة السجدة أيضاً نزلت بمكة إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة هي: ﴿**أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا...**﴾ الآيات الثلاث. وسورة الزمر نزلت بمكة الا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة في وحشي قاتل حمزة: ﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم...**﴾. الآيات الثلاث.

ووجه دلالة هذا التفريق في النزول على أن القرآن كلام الله وليس كلام بشر على الاطلاق: أن عقلاً بشرياً مهماً أوتي من القوة والحفظ والاحكام لا يستطيع أن يذكر موضع فقرة من كلام سابق مضى عليه سنوات طويلة، فيضعها في مكانها، بحيث تلتحم مع سابقاتها ولاحقاتها في اللفظ والمعنى والسياق، ولو أن عقلاً اتقن ذلك في حالة واحدة، فلن يستطيع أن يحكمه في حالات كثيرة وفي سور كثيرة بحيث لا تشذ حالة واحدة عن قاعدة الاحكام المشهودة في كتاب الله الحكيم.

لقد حدثت تلك التجزئة في النزول باستثناء آية وآيات من سورة لتنزل بعد نزول أجزاء تلك السورة بسنين طويلة - حدث ذلك في سورة البقرة، والأنعام، والاعراف، والأنفال، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد، وابراهيم، والحجر، والنحل، والاسراء، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والفرقان،

وتسع وعشرين سورة أخرى، ومع ذلك فقد وضعت الآيات التي تأخر نزولها من تلك السور في أماكنها، متلاحمة تمام التلاحم مع سوابقها ولواحقها، فلا تنافر بينها في المعنى ولا في جرس الكلام، مما يحقق ويؤكد ما جاء في السنة مجمعاً على صحته من أن الرسول ﷺ كان يضع تلك الآيات وغيرها من آيات السورة التي كانت تنزل نجوماً متتابعة في أماكنها بتوقيف من الوحي، اذ كان يقول ﷺ لكتاب الوحي: ضعوا هذه الآية أو الآيات بين آية كذا وكذا من سورة كذا.

ولنأخذ مثلاً واحداً من سورة الزمر للدلالة على صحة هذا القول. فهذه السورة نزلت بمكة إلا قوله تعالى: ﴿**قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم**﴾ إلى ﴿**من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون**﴾. فانها نزلت بالمدينة ووضعت في مكانها فتلاحمت مع الآيات تلاحماً عجيباً لا يكون أبداً ألا عن توقيف من الوحي وصار وضع الآيات بعد ذلك على الوجه التالي:

﴿**أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون. قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جيعاً انه هو الغفور الرحيم. وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون. واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت من جنب الله وان كنت لمن الساخرين**﴾.

فنحن نرى أن بسط الرزق والتضييق فيه مظنة الاسراف على النفس، ففي حالة البسط بالترف، وارتكاب الموبقات، وفي حالة الضيق بالعدوان للحصول على المال، فاقتضت الرحمة الآلهية فتح باب التوبة للمسرفين وتحذيرهم من التسويف بها خشية حلول العذاب المفاجىء، فيندم المذنب لتفريطه وسخريته بالأمر الألهي.

فهل ترى تلاحماً أبدع من هذا التلاحم؟ ولكنه نبي ورسول ما ينطق عن الهوى ﷺ.

بل أنك لا تعدم التلاحم بين الآيات دون أن توضع تلك الآيات الثلاث المدنيات في مكانها. فبسط الرزق واقتاره داعيان إلى الندم والحسرة حينما ينحرف الانسان بدافع منها أو من أحدهما عن الصراط السوي، ولهذا عقب الله قوله في بسط الرزق واقتاره بقوله: ﴿**أن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون**﴾. وذلك شاهد عظيم لعظمة الترتيب القرآني على أي وجه، وتفسير لقول عائشة رضي الله عنها لأحد المسلمين: [لايضرك أية آية قرأت قبل]. وتفسير لاقرار النبي ﷺ بلالا حينما سمعه يقرأ من هذه السورة وهذه السورة بلا ترتيب. ولكن الترتيب على وجهيه النزولي والمصحفي أحكم وأبلغ وأدخل في باب الإعجاز لذي بصيرة واعية.

ومن عجيب ما قاله سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ونقله عنه الإمام السيوطي في الإتقان: ان ربط آيات القرآن على ترتيب نزولها تكلف لا يليق. إذ أنه يشترط في حسن الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فان وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض.

وقد رد الشيخ ولي الدين الملوي عن هذا الزعم بقوله: قدوهم من قال: لا يطلب للآية الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة. وفصل الخطاب: أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً.

ونقول: ان استعراض آيات القرآن حسب ترتيب نزولها هو عين الحكمة، كما قلنا آنفاً، ونزيد هنا أن نعرض نموذجاً واحداً يقيس عليه الباحث عن حكمة الترتيب وأسراره في ترتيب النزول، وذلك من الآيات الأولى في النزول.

فأول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ سورة [العلق]. والمجموعة الأولى من آياتها التي أنزلت عليه أولاً هي من أولها إلى قوله تعالى: ﴿**علم الإنسان ما لم يعلم**﴾. ولما كانت هذه السورة مكية، وقد تأخر نزول باقيها عن نزول سورة المدثر فانا سنكتفي بالآيات الأولى منها، ثم ننظر حكمة ترتيبها مع ثانية السور نزولاً وهي سورة المدثر، ومع ثالثة السور نزولاً وهي سورة [القلم] التي نزلت بمكة إلا قوله تعالى: ﴿**أنا بلوناهم**﴾ إلى [**يعلمون** - ١٧ - ٣٣] وقوله تعالى: ﴿**فاصبر لحكم ربك**﴾ إلى [**الصالحين** - ٤٨ - ٥٠] ومع رابعة السور نزولاً وهي سورة [المزمل] المكية النزول، ماعدا قوله تعالى: ﴿**وأصبر على ما يقولون**﴾ إلى [**ومهلهم قليلاً** - ١٠، ١١].

فلما كان الرسول ﷺ قد أعده الله تعالى لأعظم رسالة من حيث عمومها وشمولها، وما شرع لها من وسائل الدعوة، ومنها الجهاد بالسيف والعلم. وما قامت عليه من أساس التوحيد في العقيدة، فقد اقتضى هذا التكليف الهائل علماً ومعرفة من معين آخر غير المعين الذي يتلقى عنه الناس علومهم ومعارفهم، هو المعين الألهي الغيبي الذي يفيض على من أسلم وجهه لله، فيقوم من شطط العقل، ويحد من شطح الوجدان، ويصحح ما في قضية الإيمان بالغيب من انحرافات سيطرت على عالم الشرق الأقصى، أي: هو المعين الذي يجب أن تقاس به معارف الناس، ولا يصح أن يقاس هو بمعارف الناس، ويجب أن تدور حوله الأفكار تلتمس فيه الحق، ولا يجوز أن يدور هو حول أفكار الناس ليحقق ظنون العقل، وأوهام الهوى.

لقد أمر الله رسوله، وكلفه أن يعلم الناس أن الله هو مصدر العلم، والموفق إلى صحيح المعرفة، فهو خالق الانسان، ومعلمه ما يخطه بقلمه، وما يعلمه بعقله، مما هو متاح له من وسائل المعرفة المنظورة، ومما لم يتح له من وسائلها الغيبية التي لا ينالها إلا بعد أن يؤمن بالغيب، ويصل روحه ووجدانه بالغيب.

وسواء مضينا مع السورة لنعلم منها نموذجاً من ضلال الإنسان الفكري حينما

يطغي إذا استغنى، بدلاً من أن يشكر، حتى يبلغ من طغيانه إذا استغنى بالماديات أن ينهي الناس عن دعاء الله، ليصدهم عن الإيمان بالغيب، ليجعل من نفسه إلهاً وطاغوتاً يحكم جهلاءهم، فان السورة تتلاحم بجزئها الأول وجزئها الثاني مع سورة المدثر، ثانية سور القرآن نزولاً، مؤيدة ما قلنامـن أن ترتيب النزول يساير حركات النفس الإنسانية وتفاعلها مع الدعوة الجديدة بالدفع إلى الأمام، أو بالتقويم عند الإنحراف، إلى جانب الأهداف الأخرى التي شرحناها.

كيف تفاعلت النفوس اذن بهذا الأعلان القرآني الجديد الذي تلقاه الرسول الأعظم؟

همس هنا وهناك بين أرجاء مكة، تعليقاً على ما حدث بالأمس القريب لمحمد بن عبد الله في غار حراء، حيرة في تفسير هذه الظاهرة في داخل الرسول العظيم. وفيما يجب أن يعمل بعدها، والزوجة الوفية الرحيمة الزكية خديجة بجواره تبعث في قلبه الطمأنينة والأمل الكبير. وكان لابد لهذه الحيرة من نهاية، ولهمس الناس من قول فصل، ولهذا نزلت سورة المدثر تضع الرسول أمام رسالته، وتعلن حكماً فاصلاً أمام زعماء قريش الذين بدأوا يهمسون بمس من الجن أصاب الرجل الأمين محمد بن عبد الله، وتحدد الخطوط العريضة للرسالة في: الإنذار، وتكبير الله، وهجران الأصنام، وطهارة الظاهر والباطن، والصبر على الأذى.

وكان انذار الرسول لقومه، وبدأت قريش تنقسم على نفسها، بين قلة مستعدة لتقبل الإيمان الغيبي، وكثرة لاصقة بالمادة وحدها، بدأت تعلن جنون الرسول العظيم، وتأخذ من جنونه منطلقاً لصد الناس عن دعوته، واعداد العدة لاضطهاده واضطهاد القابلين لها.

ولم تكن تعليقات القرشيين على الدعوة الجديدة بجنون الرسول بدعاً بين مناهج الفكر والفهم للرسالات السماوية، فتلك سمة لازمة لأولئك الذين غلفت قلوبهم بأهوائهم، رددها القرآن في قصصه عن الأمم الغابرة مع رسلها.

وكان الرد الطبيعي أن يسجل القرآن حقيقة أمر الرسول، وحقائق هؤلاء

القرشيين المارقين، التي تعبر امتداداً لمنطق الكفر والالحاد في كل زمان. فنزلت سورة القلم، تحقق كمال عقل الرسول، وتشيد بخلقه العظيم، وتعده بظهور الحق على الباطل، وترده إلى علم الله بالمهتدين والضالين دون الرجوع إلى علم البشر ومقاييسهم، وتحذره من طاعة هؤلاء الأدعياء الذين غلف قلوبهم حب المال والبنين.

ثم ماذا؟

آمن بالرسول جمع قليل، وثارت في وجهه عاصفة هائجة من العداء والمقاومة العنيفة من شأنها أن تفت في عزيمة أقوى الرجال ما لم يكن مؤمناً بقوة قاهرة عليا، هي أقوى من كل القوى البشرية مجتمعة.

ومع العناية الرحيمة الفائضة من الله تعالى على الرسول فقد وجهه سبحانه إلى منهج تربوي جديد، من شأنه أن يجعل الإنسان على صلة دائمة بمصدر القوة القاهرة العليا، مستعداً للوفاء بأعظم الأعمال، والثبات أمام أشد التبعات والأهوال. فنزلت سورة المزمل، وفي صدرها هذا المنهج الجديد للرسول وأتباعه الذين ألقيت على كواهلهم التبعات الأولى للدعوة، ولكل من يريد الخطوة بعون الله ونصره مدى الزمان.

وهذا المنهج ينحصر في قيام الليل، وترتيل القرآن في صلاة الليل، استعداداً للقول الثقيل الذي يوشك أن يتوالى القاؤه على الرسول، والهجر الجميل لأهل الأوثان، والصبر على ما يقولون، إلى آخر ما في هذه السورة من أوامر تتسق تمام الاتساق مع سير الدعوة.

وفي كل تلك السور الأولى زاده الله معرفة بأصول التوحيد وتاريخه، وطبائع الكفر ومنطقه، وذلك تلاحم وحكمة في الترتيب لا يردها عقل مستقيم، ودليل على ثراء هذا الترتيب النزولي بالعلوم والمعارف الإسلامية المتلائمة مع شمول الدعوة وصلاحيتها لكافة العصور والأجيال.

بين ترتيب القرآن في المصحف وترتيب النزول:

ما رأينا ولا سمعنا بكتاب ألفه عبقري في زمانه يعطيك من مراحل تأليفه وتسويده منهجاً عالمياً ومنه في نهاية تبييضه واخراجه منهجاً عالمياً آخر، اللهم ألا أن يكون مؤرخاً، أو عالماً أو تجريبياً من علماء الإجتماع أو الفيزياء، يثبت تجاربه ومشاهداته أو الأحداث التي يقع عليها على مدى طويل من الزمان، ثم يضع على أساس تلك المشاهدات نظرية أو قانوناً علمياً، أو قاعدة من تلك القواعد التي تسمى فلسفة التاريخ. ولكن هذا المؤلف أو ذاك يستبعد الكثير جداً من مراحل اعداد كتابه لما شابها من خطأ أو ارتجال، أو انعدام للجدوى والفائدة.

ومع ذلك فان هذا الكتاب أو ذاك رغم الجهود المضنية التي عاناها المؤلف، لا يمكن بأي حال أن يكون وافياً بحاجات العصور والأجيال، كما أنه لا يمكن أن يكون حقاً غير قابل للنقض والتغيير، فما أسرع ما تختلف المشاهدات في المعامل وتتغير القوانين العلمية، وما أسرع ما يثبت قصور النظرية الإجتماعية، أو تصادمها مع غيرها فلا يستقر الناس على رأي، ولم يستقروا منذ مطلع التاريخ حتى الآن.

وذلك لأن الإنسان مفرداً أو مجتمعاً مهما أوتي من قوة الفكر لا يمكن أن يحيط بالفطرة وقوانينها حتى يصلح أن يكون مرشداً لها، وهادياً من الضلالة. اذ أنه لا يحيط بالفطرة علماً إلا خالقها سبحانه، ومن الفطرة ألا يحيط مقيد هو الإنسان بمطلق هو سر الله في خلقه، وكل ما يعمله الإنسان من تلك الفطرة أجزاء تقل أو تكثر، ولكنها لا تصلح منهجاً عالمياً للسلوك، ولا حتى منهجاً محلياً غير قابل للنظر، اللهم إذا كان ترجمة أمينة لمقاصد فطرة الله في خلقه، وهو عمل لا يتهيأ إلا لمن يفقهون عن الله، [**واتقوا الله ويعلمكم الله**] .

والقرآن وحده هو الكتاب الذي يعطيك من كل وجهة من وجهتي ترتيبه منهجاً عالمياً جامعاً مانعاً محكماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فهو في ترتيبه النزولي كما قلنا. منهج لتأسيس دعوة، وأسلوب اقناع بعقيدة، وطريقة

تبشير وانذار، ودحض كامل لمنطق الالحاد المريض وهو في ترتيبه المصحفي أسلوب حياة، وبناء حضارة، ودستور للعالم كله محيط بكل صغيرة وكبيرة من حاجاته ومطالبه، أحكم ترتيبه من هذه الوجهة ليكون هداية للمؤمنين، من حيث كان الترتيب النزولي هداية للمؤمنين، وتدرجاً بالكافرين أو اللادينيين إلى مرتبة الإيمان، وهو في كلا الحالين نبع لا يفيض للأسرار والعلوم.

فإذا ارتاد الدعاة مجاهل الالحاد عاملوا أهلها على مقتضى ترتيب النزول فإذا ثاب الناس إلى الإيمان وضعوا بينهم وجهه الآخر وهو ترتيب المصحف ليكون أسلوب حياة، ووسيلة بناء لجحفل جديد من جحافل الدعوة والإنطلاق على وجه الأرض تحت راية الإيمان.

ومما يلقي الضوء على كلا الترتيبين: أن نحاول تفهم حديث الله عن كتابه في أول كل منهما. ففي مفتتح الترتيب النزولي نجد الحديث عن القرآن في سورة المدثر دفاعاً عنه ضد المعرضين عنه، والذين نسبوه إلى السحر أو قول البشر، ثم تقرير يؤكد أنه تذكرة. وذلك في قوله تعالى:

﴿ثم أدبر واستكبر. فقال أن هذا إلا سحر يؤثر. أن هذا إلا قول البشر - ٢٣ - ٢٥﴾. وقوله: **﴿كلا انه تذكرة. فمن شاء ذكره. وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة - ٥٤ - ٥٦﴾**.

ويصور القرآن نفور الكافرين من القرآن والرسول بقوله تعالى: **﴿فما لهم عن التذكرة معرضين. كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة - ٤٩ - ٥١﴾**.

وفي سورة القلم، ثانية سور القرآن تناولاً للقرآن حسب ترتيب النزول يمضي الحديث مع الوليد بن المغيرة أيضاً في قوله تعالى: **﴿عتل بعد ذلك زنيم. أن كان ذامال وبنين. إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين. سنسمه على الخرطوم - ١٣ - ١٦﴾**. وفي نهاية السورة يقول تعالى: **﴿وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون. وما**

هو إلا ذكر للعالمين ـ ٥١ ، ٥٢﴾ .

وفي مفتتح الترتيب في المصحف نجد الحديث عن القرآن مختلفاً تماماً. ففي أول سورة البقرة يقول الله تعالى: **﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين. الذين يؤمنون بالغيب ـ ٢ ، ٣﴾** . وبعد قليل يقول الله تعالى: **﴿وان كنتم في ريب مما نزل على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله أن كنتم صادقين. فان لم تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ـ ٢٣ ، ٢٤﴾** .

فالحديث عن القرآن في أول الترتيب النزولي يتجه في سورة المدثر الى تسفيه قول الوليد بن المغيرة في القرآن: **﴿ان هذا الا سحر يؤثر، ان هذا الا قول البشر﴾** . ثم ينعي على مثل الوليد الأعراض عما في القرآن من تذكرة. ويصور هذا الاعراض بنفور الحمير النافرة من الأسود. فكأن الاعراض قد جاء بعد نظر وكشف لحقيقة القرآن، وهو الأمر الذي حدث من الوليد حين سمع القرآن من الرسول ﷺ ، وتأمله تأملا واعيا ، فمس من قلبه منطقة الاعجاب والقرب من الايمان، وقرر أنه ليس قولا من أقوال البشر ، فلما زجره أبو جهل، وذكره الارستقراطية القرشية عاد وفكر وقدر ثم قال ما قال معرضا عما مس قلبه من حنين الى القرآن.

فكأن القضية ليست قضية الوليد ، وانما هي قضية أمثال الوليد ، وهم كثيرون في كل عصر. قضية الالحاد والاعراض عن الذكر ، وأسبابه ودوافعه، فالوليد هو التجسيد الواقعي لعناصر الالحاد ، والذي اجتمع فيه منطق الكفر والعناد ودوافعه جميعاً ، ولا بد أن يوضع هذا التجسيد الواقعي أمام المؤمنين في مطلع الدعوة حتى يكون نموذجاً يقاس عليه مثله على مدى الزمان الطويل... والا فما قيمة فرد من خلق الله كالوليد حتى يحظى بهذا القدر من الآيات في سورتي المدثر والقلم؟!

ففي سورة المدثر يقول الله تعالى عن منطق الكفر والعناد والاعراض في

صورة الوليد بن المغيرة: **﴿ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع ان أزيد . كلا انه كان لآياتنا عنيد سأرهقه صعودا . انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم ادبر واستكبر . فقال أن هذا الا سحر يؤثر، ان هذا الا قول البشر . ساصليه سقر - ١١ - ٢٦﴾**.

وفي سورة القلم يمضي القرآن مع الوليد فيقول تعالى: **﴿ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم. مناع للخير معتد أثيم. عتل بعد ذلك زنيم. ان كان ذا مال وبنين. اذا تتلى عليه آياتنا قال اساطير الأولين - ٨ - ١٥﴾** .

وهنا تتضح الصورة، وتتألق الحكمة، فالتعزز بالمال والبنين والعشيرة والجاه، والاستعباد لتلك المظاهر، وحرص القلوب عليها، والطمع في المزيد منها، يجعل الانسان نافراً عن كل ما يهدد هذا المتاع وذلك الجاه، منجنياً على القيم العليا، واصفاً اياها بغير ما هي عليه من السمو والعظمة، يقسم أغلظ الايمان ليدحض الحق ويعلي كلمة الباطل، ويفرق بين الناس حتى لا يجتمعوا على الحق، ويسلك لذلك طريق النميمة والهمز، كل ذلك بسبب حب المال والفناء في متاعه الزائل. ولكن هؤلاء المعاندين لا يصدرون عن حق آمنوا به. وانما هو العناد والمكابرة، والفزع من زوال الجاه والمال والرئاسة، ولهذا نسبوا القرآن الى نوع من التفوق البشري هو السحر، أو العلم بالتاريخ، ولم ينسبوه الى الغيب الذي هو فوق البشر والأكوان جميعاً.

هكذا كان كفار العرب الجبابرة وغيرهم من أساطين الكفر في الرسالات الأخرى.

قال قوم شعيب لشعيب: **﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في اموالنا ما نشاء - ٨٧﴾ هود.**

وقال قوم لوط عن لوط: **﴿اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون - ٥٦﴾ النمل.**

وقال فرعون عن موسى: ﴿ **اجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى. فلنأتيك بسحر مثله - ٥٧، ٥٨** ﴾ **طه.**

وقال قوم هود لهود: ﴿ **ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء - ٥٤** ﴾. **هود.**

وقال القرشيون عن نبي الاسلام: ﴿ **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - ٣١** ﴾ **الزخرف.**

وكان اليهود يخافون على مناصبهم، فكتم علماؤهم البشارة بمحمد ﷺ.

وفزع اليهود حديثاً على ما كفروا من أجله وهو المال وتجارة الشهوات فابتكروا الشيوعية ديناً، وانفقوا الملايين لاقناع الناس بأن الايمان بالله أفيون الشعوب. ولم يكن ذلك جديداً في الفكر اليهودي الملحد، فقد اتهموا الله سبحانه وتعالى بأنه اقطاعي يحجز المال عن الناس فقالوا: [**يد الله مغلولة**]. وبأنه مراب فاحش الربا. فقال حبرهم فنحاص معلقاً على أية الصدقة لابي بكر: [ان ربك قد افتقر، وانه يأكل الربا عشرة أضعاف، ونحن نأكله ضعفا واحدا]. وقاموا بما يشبه الثورات الشيوعية الحديثة حين ثاروا على المن والسلوى، وطلبوا القثاء والبصل، وحينما طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة، بل وحينما طلبوا منه أن يجعل لهم أصناماً كأصنام الكافرين.

هذا هو منطق الالحاد وطاغوته الذي افتتح الله كتابه به على ترتيب النزول، وتلك هي أهميته العظمى التي كان من الواجب على المسلمين دراستها من خلال ترتيب نزول القرآن. ولكنهم بكل أسف أغفلوا هذا الجانب فأغفلوا بهذا الاغفال باباً هو من صميم دعوتهم، ومن أصول ثقافتهم ونجاحهم، ومن مبادىء علمهم بعدوهم، وأصبح دفاعهم عن دينهم في مواجهة مذاهب اليهودية العالمية سطحياً لا يمت الى جذور الصراع بأية صلة، وأمعنوا في السطحية حتى نسبوا الى القرآن أنه أول دستور سماوي نادى باشتراكية ماركس، وهذا هو قصارى ما تريده اليهودية العالمية من المسلمين لتمضي على الطريق في غزو القرآن بهذه العقول

النخرة المتهالكة.

وتسمية القرآن في مطلع النزول بالذكر ذات دلالة عظمى على منهج التربية والدعوة في الاسلام، فهي تسمية تساير مضمون أول سورة العلق تماماً. فالذكر مقصود بمعانيه، وهي: ملكة حفظ المعلومات وجمعها، أو توارد المعاني على القلب عند الحاجة اليها، أو ذكر الله بالقلب واللسان حتى يكون الذاكر مراقباً لله في كل حركاته وسكناته، أو الانتفاع بما في القرآن من مواعظ وحكم وعبرة. فتلك المعاني كلها مرادة من الذكر، وهي مع أول سورة العلق تمثلان نفس المنهج التربوي متكاملاً. وهذا المنهج المتكامل هو خير ما يقاوم تيار الكفر ومنطق الالحاد، بتكوين قاعدة عريضة وصلبة من الايمان الحق بالقوة القاهرة العليا.

ثم نأتي الى حديث الله تعالى عن القرآن في مطلع ترتيب المصحف فنرى العجب العجاب من حكمة الله في ترتيب كتابه الحكيم، فالسورة الحادية والخمسون في ترتيب النزول تتصدر القرآن في ترتيب المصحف.. فما حكمة هذا التصدر، وما سره؟

نزلت سورة البقرة بالمدينة، والمدينة بوضعها الرمزي بل والأصيل هي حاضرة دار الاسلام، وعاصمة الحكم لامة الاسلام، ومنطلق الفاتحين المبشرين بالدين الجديد، ومركز الدعوة ضد دار الكفر في مكة، وفيما والى مكة والمدينة من اقاصي الجزيرة، وفيما تاخم المدينة من أرض اليهود، أي أن المدينة قد أصبحت قاعدة الصراع والدعوة، ومجتمع المؤمنين القادة الاوائل، وكان القرآن قد استقر بمنطقه وقوته بين المؤمنين، وخلف بين كفار مكة بعد الهجرة فزعاً اطاش منهم الصواب.

لقد مضت مرحلة الذكر بمعانيها التربوية الأولى، وأصبح الذكر مقروناً بالهدى للمؤمنين في الحاضرة الجديدة للاسلام، وفي كل دولة ينتشر فيها

الاسلام فيما بعد عصر الرسول الى آخر الزمان، وتستقر فيها دعائمه - وتتجاوز مرحلة الصراع بين العناد والاستسلام.

وحاجة البناء الجديدة في المدينة وما شابهها من حواضر الاسلام المكلفة بالجهاد لنشر الاسلام الى الهداية، وحاجتها الى تحديد صفات المؤمنين وخصائصهم لا تدانيها حاجة من حاجات الأمم الناشئة ذات الرسالات والدعوات الكبرى. وذلك ليستوثق كل مؤمن من نفسه، ويكتشف بنور الهدى وظاهر العلامات ذلك النوع من الناس الذين تصاب بهم المثل العليا في كل زمان وهم المنافقون.

والهدى يبدأ من فطرة الانسان، وما أودعه الله فيه من ملكة الفرق بين الحق والباطل اذا لم يعمل على افساد فطرته بالتمرغ في وحل الهوى وتلك هي التقوى، ثم يتدرج بعد ان يزول الهوى عن النفس وتتجرد الفطرة الى فقه ما نزل من القرآن، وتعرف وجوه حكمته، ثم يتدرج بعد احكام هذين الوجهين الى الظفر بعون الله على الهداية والتقوى ﴿**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**﴾ وهنا يستقيم وجه المؤمنين على طريق الرضوان الالهي.. الى جنة الخلد ونعيم لا يبلى بحول الله.

أما سمات المؤمنين المتقين الظافرين بعون الله على الهدى والتقوى فقد أعقبت وصف القرآن بأنه هدى في مطلع سورة البقرة. فالمؤمن كما قلنا يجرد نفسه عن الهوى، ويفقه بفطرته ما دعي الى فهمه من كتاب الله، ودعوة الرسول، فيمنحه الله مزيداً من الهدى، ويؤتيه على الفور درجة التقوى، وفي التقوى يندرج: الايمان بالغيب، واقامة الصلاة، وانحلال قبضة القلب واليد عن المال وانفاقه في سبيل الله، والايمان بالرسل والكتب، واليقين بالبعث والحساب في الآخرة، أي هي: وصل الحياة الاخرى بالحياة الدنيا، على الوجه الذي شرحناه في صدر هذه الدراسة.

وهنا يتميز المؤمنون المتقون بعلامات ظاهرة، وعلامات اخرى باطنة كاليقين بالآخرة لها دلائل من السلوك الظاهري، وهذا التمييز للمتقين يعزل تلقائياً المنافقين فلا يخفون على مؤمن تقي أورثه اليقين بالغيب بصيرة نافذة، وفراسة لا تخطىء، ومع ذلك فلم يكل الله المؤمنين الى جهودهم في كشف المنافقين دون أن يمنحهم مزيداً من الهداية الى معرفتهم بسماتهم الظاهرة لكل ذي عينين، وذلك لخطورة هذا النوع من الناس على بناء الحضارات في كل زمان، ولرواج خداعهم لدى ضعاف الايمان. ولهذا مضت السورة في تحديد معالم النفاق من قوله تعالى: **﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين - ٨﴾ الى ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شيء قدير - ٢٠﴾**. أما تفصيل المراتب النفسية للنفاق ودوافعه فموضوع طويل يخرج بنا عن مقصود الدراسة.

ولقد فطن الامام السيوطي الى سر ترتيب المصحف من هذه الوجهة التي شرحنا طرفاً منها غير الذي تحدث عنه فقال في كلامه عن سورة البقرة ما تسوقه بتصرف:

كان خطاب النصارى في آل عمران أكثر، وخطاب اليهود في البقرة أكثر، لأن التوراة أصل، والانجيل فرع لها، والرسول دعا اليهود في المدينة، ولم يجاهد النصارى الا آخر الامر... وسورة النساء تضمنت أحكام الأسباب التي بين الناس مما هو مخلوق لله، ومقدور لهم، كالنسب والصهر، وهو أساس بناء المجتمع. ولهذا تضمنت أحكام النكاح ومحرماته، والموارث المتعلقة بالارحام، وأما المائدة فسورة العقود التي تنشأ عن الجهاد والصراع بين أمة الاسلام والأمم الاخرى، وتضمنت تمام الشرائع، ومكملات الدين، وصيانته من عوامل الهدم، كتحريم الخمر، وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين... الى آخر ما قاله فأبدع في القول.

وحيثما دققت النظر استبان لك معنى جديد من معاني الترتيب، فما يصح في

منطق القول أن نحدد مرادات الله، وهو المطلق عن الاطلاق، والمحيط بالعقول والمواهب.

ولو ذهبنا مع القرآن مرتباً في المصحف من أوله الى آخره لوجدناه على هذه الوتيرة: شعار أمة مجاهدة مؤمنة كلها هدى ونور قد انعزل بنور هدايتهم المنافقون، ووضعوا في صف واحد مع المشركين في وجوب جهادهم، بعد أن كان على ترتيب النزول وسيلة اقناع، وأداة صراع مع منطق الكفر، وجبروت النفاق، ودفاعاً عن مقدسات الهدى والايمان. وما كان على ترتيب النزول مقدماً عاد فوضع في اماكنه بحيث لا تخطئه الحكمة ولا يعدوه الاحكام والتفصيل، وتلك دلالة كبرى على اعجاز القرآن ما بعدها دلالة لطالب عظمة القرآن. وفي كتاب الامام السيوطي الذي الحقناه بهذه الدراسة خير دليل نقدمه على صحة ما نقول.

ولقد عرف سر ترتيب القرآن قديماً بعلم المناسبات، وما عرف منه فأنما هو ما في ترتيب المصحف، أما أسرار ترتيب النزول فلا نعلم أحداً تعرض له في كتاب، لا في القديم ولا في الحديث، الا قليلاً في كتب الأصول.

ورغم كثرة كتب التفسير التقليدي فإن المؤلفات في سر ترتيب القرآن أو علم المناسبة قليلة جداً، فالذي نعلمه من هذه الكتب كتاب البقاعي «نظم الدرر» ومنه نسخة كاملة بالمكتبة الأزهرية بمصر في ستة مجلدات كبار. وكتاب «البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن» لأبي جعفر بن الزبير، شيخ أبي حيان صاحب البحر المحيط، وكتاب السيوطي هذا الذي نقدمه للقراء، وكتاب آخر للسيوطي سماه «مراصد المطالع في المقاطع والمطالع»، وكتاب قال السيوطي أنه كتبه وجعل من أبوابه الموسوعية ترتيب القرآن سماه «أسرار التنزيل».

وقد نبه العلماء قديماً على اهمال علم المناسبة، ولفتوا الانظار الى أنه يحتوي على لطائف القرآن، بل ان الفخر الرازي قال: «من تأمل في لطائف نظم السور وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف

معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: انه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، الا اني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف، غير منتبهين لهذه الأسرار».

وكان ابن العربي قد يئس من طلاب العلم والعلماء الذين أعرضوا جملة وتفصيلاً عن هذا العلم الجليل، وأعرب عن يأسه في قوله: «ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له الا عالم واحد، عمل سورة البقرة، ثم فتح الله لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه اليه».

وقد جاهد الشيخ أبو بكر النيسابوري في نشر هذا العلم، فجعل دروسه في التفسير قائمة على بيان المناسبات، ومع ذلك فقد أعلن سخطه على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبات.

ومن العجيب أن اهمال هذا الجانب من الدراسات القرآنية المهمة لا زال قائماً لم يتقدم خطوة واحدة الى الأمام. فعلى الرغم من أن مؤسسات النشر الحكومية والخاصة دائبة على نشر الكتب التقليدية في التفسير، والتي يغني بعضها عن مجموعها فقد أغلقت أبوابها في وجه أول تفسير موسوعي من نوعه تخصص في هذا النوع، وهو «نظم الدرر» للبقاعي. ولا حجة لهذه الدور في أنها تنشد الرواج التجاري للكتب، فهذا الكتاب في الدرجة الاولى من الرواج لعدم وجود نظير له بين الدارسين، ولجودته الفائقة من جهة أخرى. ولا حجة لكبار العلماء في جهلهم بهذا الكتاب، فالذي نعلمه أنه كان بصفة دائمة على مكتب الشيخ المراغي، واقتبس منه كبير من العلماء جلاً صنع منها تفسيراً نسبه لنفسه. فإن كان حبس الكتاب عن الطبع ليكون مصدراً للسطو فبئس الصنيع، وان كان حبسه مع غيره تنفيذاً لمخطط قصد به أن يظل المسلمون بين لغط التكرار الممل لعلوم التفسير فيا خيبة المسعى.

ولقد نفذ غلاة الشيعة وكثير من الملاحدة من خلال موضوع ترتيب القرآن في المصحف، وأطالوا القول طعناً في القرآن الكريم متذرعين باختلاف مصاحف بعض الصحابة في ترتيبها، وغير ذلك من الذرائع الواهية التي تكفل الامام السيوطي بالرد عليها في مقدمة كتابه هذا، ثم ساق كتابه دليلاً على أن ترتيب القرآن في المصحف توقيفي الى جانب الأدلة الأخرى التي فصلها في المقدمة.

وهناك دلائل من سياق ترتيب القرآن في المصحف تؤكد أن ترتيبه فيه ما كان الا بالوحي، ولم يكن من صنع بشر، لأن تلك الاعتبارات المرعية في هذا الترتيب لم تكن من منهج الصحابة في التفكير، ولا سمعنا أن اجتماعاً حدث بينهم لهذا الترتيب، اللهم الا ما روي عن زيد بن ثابت قال: «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع...». وما دام هذا التأليف كان عند الرسول، فما كان الرسول ناطقاً عن الهوى، لا سيما وقد صح انه كان يرشد كتاب الوحي والحفاظ الى مكان الآية من سورتها عقب نزولها. ومن تلك الدلائل ما يلي:

١ - قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم - ٢١**﴾ فالعبادة في الآية معناها: التوحيد، وهو أول ما يلزم العبد معرفته، والإيمان به، ولهذا كان أول خطاب خاطب الله به الناس جميعاً في أول سورة في القرآن، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى في نفس السورة: ﴿**ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم**﴾ قال الكرماني: وهو علم الكمال، أي العلم بالله وأسمائه وصفاته، ولذلك عبر عنه بقول: [الذي].

وورود هذه الآية بهذا المعنى في أول سورة في المصحف مع أنها مدنية وليست مكية، دليل على أن هذا الترتيب توقيفي من الوحي، ويدل عليه قوله تعالى في سورة هود: ﴿**فأتو بعشر سور مثله - ٣**﴾ وسورة هود مكية، والمعنى: فأتوا بعشر سور مثله، أي: من البقرة الى هود، وهي العاشرة، مع أن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة مدنيات نزلن بعدها.

فأية هود مستقيمة المعنى على ترتيب النزول، باعتبار أن التحدي واقع على

عشر سور من القرآن عامة غير محددة، ولكن ترتيب المصحف حدد العشر، وحدد أول ما يجب على العبد معرفته واعتقاده مثبتاً في أول سورة من القرآن.

٢ - ومن دلائل الترتيب واحكامه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**الا ابليس ابى واستكبر - ٣٤**﴾. ولقد جرت عادة القرآن في شأن العقيدة أن يجملها، ثم يفصلها فيما بعدها من الآيات، وهذا هو الثابت في ترتيب المصحف، واباء السجود من ابليس يعتبر بياناً للعقيدة عن طريق بيان موانع الايمان بها، وقد جاءت تلك الموانع مجملة في قوله: [أبى]. ثم فصلت فيما بعدها من السور على ترتيب لا يخلو من الأسرار وأحكام الترتيب.

ففي سورة الحجر قال تعالى: ﴿**الا ابليس أبى ان يكون مع الساجدين - ٣١**﴾. وفيه بيان لموضع الاباء، وفي سورة الاسراء: ﴿**قال أأسجد لمن خلقت طينا - ٦١**﴾. وهو بيان لعلة الاباء. وفي سورة الكهف: ﴿**الا ابليس استكبر وكان من الكافرين - ٧٤**﴾. وفيه علة من علل الاباء وهي الكبر. مع تفصيل نتائجها، وانها تصل بصاحبها الى الكفر. فانتهى بما بدأ به من تقرير هذه القضية التي يقوم عليها الكفر في كل زمان.

٣ - قوله تعالى في سورة البقرة عن بني اسرائيل: ﴿**ويقتلون النبيين بغير الحق - ٦١**﴾. وفي آل عمران: ﴿**ويقتلون النبيين بغير حق - ٢١**﴾. وفي سورة النساء: ﴿**وقتلهم الانبياء بغير حق - ١٥٥**﴾. فقد وردت كلمة [الحق] معرفة بالالف واللام في البقرة، ونكرة في آل عمران والنساء. وقال المفسرون: ان المعرفة يراد بها الحق الذي أمر الله أن تقتل النفس بسببه وهو قوله تعالى: ﴿**ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق - ٦: ١٥١**﴾. فكان اولى أن يذكر مقدماً ومعرفاً، لأنه من الله تعالى، ولأنه عام في الشرائع كلها. والنكرة في آل عمران والنساء معناها: بغير حق في معتقدهم ودينهم، فكان أولى بالتأخير، لأنه خاص بفريق من الناس، وليس عاماً في الشرائع والديانات.

٤ ـ قوله تعالى في دعاء ابراهيم الخليل عند بيت الله المحرم في سورة البقرة: ﴿**رب أجعل هذا بلدا آمنا ـ ١٢٦**﴾. وفي سورة ابراهيم: ﴿**رب اجعل هذا البلد آمنا ـ ٣٥**﴾. فكلمة [بلداً] جاءت منكرة في البقرة، ومعرفة في ابراهيم، لأن الدعاء الوارد في البقرة كان قبل بناء الكعبة، كما أشير اليه بقوله تعالى: ﴿**بواد غير ذي زرع ـ ٣٧**﴾. فلما بنيت الكعبة، واستقر حولها الناس، جاء الدعاء للبلد المعروف المحدد المعالم، ولذلك جاء معرفاً، وجاء عقبه في ابراهيم: ﴿**واجنبني وبنــي أن نعبــد الاصنــام**﴾ وجــاء في البقــرة عقبــه: ﴿**وارزق أهله من الثمرات**﴾.

٥ ـ قال تعالى في سورة البقرة: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ـ ١٩٣**﴾ وقال في سورة الأنفال: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ـ ٣٩**﴾. وقد جاء هذا النسق على ترتيب القتال داخل الجزيرة العربية وخارجها، فالذي في سورة البقرة يراد به كفار الجزيرة العربية، لتكون القاعدة العربية الأولى التي يناط بها نشر الدعوة خارج الجزيرة، ولذلك جاء في الأنفال كلمة [كله] أشارة الى قتال جميع الكفار، وقد تطابق الترتيب مع الواقع، ورتبت الاوامر حسب تدرجها.

٦ ـ في معرض التحدي بالقرآن جاء في سورة البقرة خطاباً لمنكري أن القرآن من عند الله: ﴿**وادعوا شهداءكم ـ ٢٣**﴾. ثم جاء في سورة يونس: ﴿**وادعوا من استطعتم ـ ٣٨**﴾. وكذلك جاء في سورة هود، وذلك لأنه لما زاد في السور المتحدى بها الى عشر سور، زاد في المدعوين فقال: ﴿**من استطعتم**﴾. ولما كان التحدي في سورة البقرة بسورة واحدة قل عدد المدعوين، وانحصر في الشهداء وحدهم.

وقد مضى الترتيب مسايراً للملابسات حتى سورة الاسراء، اذ وقع التحدي صراحة على جميع القرآن، فوجه الكلام الى الجن والأنس جميعاً فقال تعالى: ﴿**قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون**

بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - ٨٨﴾.

وبهذا ندرك تدرج التحدي من سورة، الى عشر سور، الى القرآن كله، وملاءمة القرآن بين القدر المتحدى به، ومقدار المدعوين الى معارضته، في ترتيب دقيق محكم.

٧ - وترتيب مجموعة من الآيات في موضوع واحد تتجلى فيه الدقة الخارقة في مراعاة التسلسل المنطقي للفكرة التي تدور حلوها تلك المجموعة، مما يقطع بأنه من عمل غير الصحابة، اي أنه توقيف من الوحي، لأن تلك الملاحظات لم تكن قط من الأمور التي جرى بحثها والكلام عنها في عهد الصحابة كما تشهد بذلك آثارهم.

فقد جاء في سورة النمل جملة **﴿أ اله مع الله﴾** خمس مرات متوالية، وختمت الأولى بقوله: **﴿بل هم قوم يعدلون - ٦٠﴾**. والثانية بقول: **﴿بل أكثرهم لا يعلمون - ٦١﴾**. والثالثة بقوله: **﴿قليلا ما تذكرون - ٦٢﴾** والرابعة بقوله: **﴿تعالى الله عما يشركون - ٦٣﴾**. والخامسة بقوله: **﴿قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين - ٦٤﴾**.

قال الكرماني: عدلوا الى الذنوب، وأول الذنوب: العدل عن الحق، ثم لم يعلموا، ولو علموا ما عدلوا، ثم لم يذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال، فأشركوا من غير حجة ولا برهان، قل لهم يا محمد: هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين.

٨ - وفي ترتيب المسبحات قد استوعب القرآن هذه الكلمة. كلمة التسبيح من جميع جهاتها، على ترتيب بديع يتفق مع المعاني اللغوية تمام الاتفاق، فلم يتقدم معنى يستحق التأخير، ولم يتأخر معنى يستحق التقديم.

فقد استعملت الكلمة أولاً في سورة الاسراء على هيئة المصدر [سبحان]، لأن المصدر هو الأصل اللغوي لجميع المشتقات، ثم استعملت بعد المصدر بالفعل الماضي في سورة الحديد والحشر والصف، لأن الماضي اسبق الزمانين، ثم

استعملت بالفعل المضارع في سورتي الجمعة والتغابن، ثم جاءت أخيراً بفعل الأمر في سورة الأعلى.

فاستوعبت الكلمة من جميع جهاتها على ترتيب بين أصلها وأزمنتها قل أن يفطن اليه البشر الذين يخلطون بين الأزمنة والأصول والفروع.

ومما يؤكد أن ترتيب القرآن في المصحف آياته وسوره بتوقيف كثرة هذه الشواهد حتى تبلغ الآلاف المؤلفة، منثورة في مؤلفات العلماء، ومن البعيد جداً أن يكون الرهط الذين كلفهم عثمان رضي الله عنه بجمع سور القرآن في المصحف قد بحثوا عن هذه المناسبات، ثم رتبوا القرآن على أساسها، فكما قلنا هناك من المناسبات ما يشتمل على تقسيمات وتفريعات لم تكن من ثقافة العصر، ولم يؤثر مثلها عن الصحابة، ولم تظهر الا بعد عصرهم، كما أن المأثور من جمع القرآن أنه حدث ثلاث مرات: مرة في حضرة الرسول ﷺ وبأمره، كما قال زيد بن ثابت: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع... والاجماع قد انعقد على أنه ﷺ كان يرشد الصحابة الى مواضع الآيات من السور تلقياً من الوحي، وعلى هذا فترتيب الآيات في سورها توقيفي من الوحي، وكانت المرة الثانية في عهد أبي بكر، فقد كلف زيد بن ثابت بتأليف لجنة قامت بعملية تحقيق ومقارنة لنصوص القرآن المكتوبة بالمحفوظ في الصدور، وكان عمل اللجنة كما يقول الحارث المحاسبي: عبارة عن نسخ القرآن من العسب والاكتاف والرقاع في مكان واحد مجتمعاً. والمرة الثالثة في عهد عثمان، وكانت لاعادة كتابة القرآن بلهجة قريش خوفاً من فتنة قد تنشأ من اختلاف اللهجات والقراءات، حتى اقتتل المعلمون والصبيان على ذلك، ورتبت السور في هذه المرة، وليس من الآثار أن مراعاة المناسبات المعنوية واللفظية كانت من عناصر الترتيب مطلقاً.

واذا كان هناك زعم بأن هذا الترتيب كان من فعل الصحابة، فإنه من غير المعقول أن يفطن أحد إلى تسلسل الاشتقاق المحكم للمسبحات على الوجه الذي بيناه، وإلى أمثال ذلك مما يحتاج إلى درس لقواعد اللغة التي لم تكن قد عرفت بعد. والقول بالصدفة هنا تبطله الشواهد الأخرى المماثلة والتي لا تحصى، والتي

لايمكن أن تكون إلا عن وحي وتوقيف.

ولا ندري كيف يؤكد بعض علماء السلف أن ترتيب السور كان من عمل الصحابة استناداً إلى الإختلاف في مصاحف بعض الصحابة مع هذه الشواهد التي تؤكد تسلسل المعاني والإشتقاقات اللغوية، والوقائع التاريخية داخل السور وفي تسلسلها كما هو في المصحف. وغاب عنهم: أن الترتيب التوقيفي لا يمنع مطلقاً التقديم والتأخير في القراءة ما لم تقرأ السورة منكوسة من آخرها إلى أولها، وترتيب السور على النزول توقيف هو الآخر، أما مصحفا أبي وابن مسعود فقد رد السيوطي عن خلافهما في الترتيب للمصحف العثماني. على أن قتادة كان قد عرض على عكرمة أن يؤلف القرآن على ترتيب النزول آية آية، الاول فالأول، ولكن المشروع كان مستحيلاً، اذ قال عكرمة: لو اجتمع الأنس والجن على أن يؤلفوه كذلك مااستطاعوا. ولو استطاعوا لكان تأليفاً توقيفياً سائغاً هو الآخر.

بقي أن نشير - زيادة على ما ذكره السيوطي أو توضيحاً له - بعض القواعد والأصول التي قام عليها سر الترتيب ودلت قاطعة في الوقت نفسه على أن رعاية هذه القواعد والأصول لم تكن مألوفة ولا كانت من شغل الصحابة الذين شغلوا بالعمل وعلم العمل والجهاد، ولم يتفرغوا لهذه الأسرار التي أودعها اللّه في الكتاب سراً في ترتيبه كما هو في المصحف.

قالوا: ان الأمر الكلي الذي يفيد معرفة مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أن تنظر إلى الغرض التي سيقت له السورة، تنظر ما يحتاج اليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر الى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد عن المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات الى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع الى الاحكام أو اللوازم التابعة له، والتي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع هذا الاستشراف الى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن.

وقالوا: أن التناسب أنواع:

منها مناسبة فواتح السور وخواتمها، كما في فاتحة سورة [المؤمنون] ﴿قد

أفلح المؤمنون﴾ . وفي نهايتها : **﴿انه لا يفلح الكافرون﴾** . وكما في فاتحة سورة ص **﴿والقرآن ذي الذكر﴾** . وخاتمها : **﴿أن هو إلا ذكر للعالمين﴾** .

ومنها مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها ، وقد أشبع السيوطي القول في هذا النوع .

ومنها اختصاص كل سورة من السور المفتتحة بالحروف المقطعة بما بدئت به ، حتى لم يكن من الممكن أن توضع [الم] في موضع [الر] ولا [حم] موضع [طس]. وذلك لأن كل سورة بدئت بحرف ، فان هذا يغلب ويكثر في أثناء السورة. ومثل ذلك سورة [ق] ويونس ، فقد تكررت الكلمات المحتوية على القاف والراء في هاتين السورتين وأمثالها من خمسين مرة إلى مائتي مرة حسب طول السورة ، وهكذا في جميع تلك السور .

ومنها التناسب بالتنظير ، والتضاد ، والاستطراد ، والتخلص إلى الغرض ، وغير ذلك من الأنواع التي يطول بها المقال ، ولكنها مع الأنواع الأخرى التي ذكرها السيوطي في كتابه هذا على كثرتها تؤكد أنها لم تكن من منهج جمع القرآن ، وأن هذا الترتيب من الوحي ، لا سيما وأن الترتيب الذي تم على يد عثمان رضي الله عنه كان سنة خمس وعشرين ، وبدأت الفتنة سنة ثلاثين ، واستمرت خمس سنين ، ولم تكن الفتنة عملاً مفاجئاً دون مقدمات كان منها شكوى عثمان من خلاف ابن مسعود وأبي ذر رضي الله عنهما عليه ، وكان انتهاء اللجنة التي قامت بكتابة المصحف الإمام وترتيبه قبل وفاة ابن مسعود ، لإنه كما يروى اعترض على تولية زيد هذه المهمة ، وقد توفي ابن مسعود سنة [٣٢] ، اذن فالزمن الذي استغرقه جمع المصحف لا يتجاوز أربع سنين تقريباً ، وهو زمن لا يكفي مطلقاً لفحص الأساليب القرآنية والمعاني التي قصد منها ، والإعتبارات الكثيرة جداً والتي قام على أساسها الترتيب ، فلم يبق إلا أنه توقيف من الوحي ، وأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

القرآن ومنهج الدعوة

من العسير أن نفصل القول في ارتباط الترتيب النزولي والترتيب المصحفي بمنهج القرآن في الدعوة على المستوى الإنشائي لأمة العرب والمستوى الدستوري العالمي لأمة القرآن في العالم كله ـ من العسير استيعاب القول في ذلك مفصلاً في هذه العجالة، ولكنا نستعين الله في رسم الخطوط العريضة التي تلقي ضوءاً يكشف عن عظمة الحكيم الخبير سبحانه وهو يودع كتابه المبين وسائل الإعلام الناجحة لمن فقه وعقل وتدبر.

فمن المعلوم: أن الزمن الذي قضاه الرسول ﷺ في مكة ـ وهو نصف زمن الرسالة على وجه التقريب ـ اقتصرت دعوته فيه على العقيدة وروافدها، ووسائل اعلائها وترسيخها على المستوى العربي القرشي المختار لنشر الدعوة في الجزيرة العربية كلها، ثم في خارجها على مقتضى عموم الرسالة للبشر جميعاً. ولم يشرع من العبادات في مكة غير الصلاة، وذلك لصلتها الوثيقة بالعقيدة من حيث هي تدريب عملي متكرر في اليوم والليلة على [الاستجماع] الروحي الواعي في وجدان العقيدة، بقطع العلائق النفسية، وطهارة المكان والجسد من النجاسة الظاهرة، والقلب من كل شاغل دنيوي حتى يتوحد الإنسان المصلي، ثم يتوجه ـ وهو على هذه الحالة من الإستجماع ـ نحو الله الواحد في مناجاة تغمره بفيض من الإيمان بعبوديته الكاملة للحق من دون الناس والشهوات، وسلطان النفس، وأوهام الضلالات الوثنية. أما تشريع الحلال والحرام والفرائض الأخرى فقد كان بعد الهجرة، وبعد أن آتى هذا المنهج الحكيم ثماره في أكثر من عشر سنين قضاها الرسول ﷺ بأمر ربه في تدريب الرعيل الأول من أصحابه [عرب قريش] على أحكام العقيدة قولاً وعملاً، وإسلاماً وإيماناً، وذوقاً في أعماق الوجدان وأغوار العقل.

كان لابد من هذه البداية الحكيمة، لأن عقيدة يضطرب فيها المرء بين الأذعان والشرك، لا يمكن أن تكون منطلقاً مأمون العواقب لإقامة بناء دين

لأمة رائدة، كما أن الخلط بين التدريب على احكام العقيدة وبين تشريع الحلال والحرام في وقت واحد مظنة التفلت من عرا الإسلام ايثاراً للهوى على المثل الأعلى، وللحياة على الشهادة في سبيل معبود لم تنعقد عليه القلوب.

وكان لابد من تأسيس تلك العقيدة في مكة بالذات من دون بلاد الجزيرة العربية، إذ هي وحدها البيئة المعزولة عن ضجيج الفلسفات التي دارت قضاياها حول الألوهية في دولة الروم والهند ومصر وفارس، ولا يمكن أن تستقر عقيدة تنمو بين تلك المذاهب إلا وقد احتوتها تلك الفلسفات، وزودتها بسلاح هدام من الجدل والمراء. وهي وحدها البلد التي يقوم بين ربوعها أول بيت وضع للناس: بيت الله الحرام، وكان للبيت عندهم منزلة عظمى على شركهم، كما كانت وظائفه كالرفادة والسقاية والسدانة وغيرها مصدر شرف لا يدانيه شرف لمن يتولونها، ومن هنا كان البيت الحرام بمثابة الوسيلة التعليمية الناجحة حينما تنبت النابتة الأولى للوحدانية الشاملة في جواره.

وانما اختار الله العرب وقريشاً بوجه خاص ليكونوا خير أمة أخرجت للناس لأسباب كثيرة نذكر من أهمها: أنهم يحملون سمات العالمية في دمائهم، وسواء كانت تلك العالمية ناشئة من الهجرات القديمة، أو كانت من طريق تكوين العنصر، فان دم ابراهيم الكلداني عليه السلام يجري إلى ولده اسماعيل مختلطاً بدم المصرية الصالحة [هاجر] ثم يختلط دم اسماعيل هذا بدماء جرهم اليمنية ليكون العرب من قريش خلاصة هذه السلالة العجيبة بين سلالات البشر، بما أودعه الله فيها من خلال الشرف، وسلامة النفس من العقد، والإستعداد لتفسير غير المنظور بالمنظور عن طريق المقارنة وتلمس القرائن الواضحة.

فالعرب رغم ما شاب طبائعهم الاصيلة من سعار المال، وقسوة القلب، والإستعلاء على الضعيف، والإغراق في المحرمات، كانوا على استعداد للمضي على طريق الحق بنفس القوة والصرامة التي مارسوا بها نشاطهم على طريق الباطل إذا أحسنت سياستهم، وأحكم أمرهم على توجيه منظم. فقد كانت لديهم

صفات كثيرة تشير إلى استعداد للتفوق والزعامة، والجمع بين وعي الروح ووعي العقل في ثقافة واحدة، وكان من صفاتهم البارزة: عدم الإستجابة للعقد النفسية، فبقيت روحهم المعنوية عالية حصينة من كل ما يخفضها أو يحد من اندفاعها، مما أهلهم بحق لأن يكونوا أمة رائدة لحضارة القرآن.

ويقول الجاحظ في هذا الصدد: [وقد فخروا بالعمى، وذلك كثير، واحتجوا بالعرج، وذلك غير قليل..وإذا كان الإعرابي يعتريه البرص فيجعله زيادة في الجمال، ودليلاً على المجد، فما ظنك بقوله في العمى والعرج وهما لا يستقذران ولا يتقزز منهما...وقد يفر الاعرابي في الحرب، فلا يقر بالجبن عن الأعداء، وبالنكول عن الإكفاء، بل يخرج لذلك الفرار معنى، ويجعل له مذهباً، ثم لا يرضى حتى يجعل ذلك المفخر شعراً، ويشهره في الآفاق].

ثم يقول في هذا الشأن: [ويكون الإعرابي شختاً (ضامراً خلفه لاهزالاً) مهزولاً مقرقماً (لايشب لسوء الغذاء) فيجعل ذلك دليلاً على كرم أعراقه، وشرف ولادته.]وفي ذلك أنشدوا:

قد علمت أنا أتاويان   من كرم الأعراق ضاويان

وأنشدوا كذلك: ★قرقمه العز وأضواه الكرم★

والأتاويان: مثنى الأتاوى، وهو الغريب. والضاوي: النحيف خلقة.

وقال أبو طالب عم النبي ﷺ وقد عيره بعض نسائه بالعرج:

قالت عرجت فقد عرجت فما الذي   أنكرت من جلدي وحسن فعالي
أدع الرفاجة لا أريد نماءها   كيما أفيد رغائب الأموال
وأكف سهمي عن وجوه جمة   حتى تصيب مقاتل البخال

والرفاجة: التجارة.

ويشير الجاحظ في كتابه عن العرجان والبرصان إلى ما وراء هذا الخلق من

قوة الروح المعنوية التي تعتبر سمة لازمة لحماية دعوة الإسلام من العدوان وهي تخوض مع أعدائها معارك ضارية داخل الجزيرة وخارجها فيقول: [فبهذه النفوس حفظك الله حفظوا أنسابهم، وتذاكروا مآثرهم، وقيدوا لأنفسهم بالأشعار مناقبهم، وحاربوا أعداءهم، وطالبوا بطوائلهم (جمع طائلة، وهي الثأر) . ورأوا للشرف حقاً لم يره سواهم].

ولم تكن هذه الروح المعنوية الفطرية عند العرب - لاسيما القرشيين منهم - دعوى عريضة دون سند من العمل السلوكي الجاد الذي يدعمها، ويدل على صدقها، وعلى صلاحيتها للحركة في مختلف المستويات، فالواقع التاريخي يحدثنا عن التدريبات العسكرية التي تصل إلى أرقى المستويات في العصر الأول. والرسول ﷺ نفسه كان يسابق عائشة رضي الله عنها، وكان الرمي وتضمير الخيل من أهم أعمالهم العسكرية، كما يحدثنا ابن عبد ربه في العقد الفريد أن عمر ابن الخطاب كان يمسك أذنه اليسرى بأصبعه اليمنى أو أذن فرسه اليسرى بيده اليمنى ثم يقفز على ظهر الفرس كأنما خلق هنالك. وكان ينصح المدربين العسكريين بأن ينزعوا الركب، ويقفزوا على الخيل وأن يلبسوا الخشن من الثياب كما كان يفعل معد بن عدنان الجد الأعلى لقريش، وكان يقول: [اياكم والسمنة، فأنها عقلة (أي وثاق) وامشوا حفاة، فانكم لا تدرون متى تكون الجولة].

وعلى ضوء هذه المعلومات وأشباهها نضع أصابعنا على الخطوط العريضة لأسلوب الدعوة القرآنية في العهد المكي عامة، وفي ترتيب نزول القرآن بوجه خاص.. كان المجتمع القبلي بما فيه من المفاخر الجماعية والفردية لذلك المجتمع هو المثل الأعلى السائد بين العرب، ومن أجله حفظت الأنساب، وثارت الحروب، وضرب المتنافسون عليه أكباد الإبل إلى الكهان للمنافرة، وتناشدوا الأشعار، وعقدوا الأحلاف، وتكاثروا في المال والعدد . ومن هنا كانت الموهبة العربية حبيسة في أطار لاصق بالأرض وما عليها، ثائرة في داخل أطارها تريد أن تنطلق منه إلى مداها الذي يتناسب مع قوتها، وصلاحيتها للإمتداد، ولا أدل

على ثورة تلك المواهب طلباً للإنطلاق من تلك الموجات التي اندفعت من داخل الجزيرة منذ القدم في شكل هجرات إلى العراق والشام، بل والى مصر على الراجح من دلالات الآثار والتواريخ.

وإذا كانت الموهبة أكبر من الهدف الذي تعمل له فقد تدارك اللّه تلك الأمة العجيبة بين أمم الأرض برسول من انفسها، وكتاب بلغتها، وهدف متوازن مع مواهبهم ينطلق بهم من نطاق الأرض إلى فسحة الغيب... ولم يكن اقناعها بالإيمان بالغيب من السهولة بمكان... ولهذا نرى منهج الدعوة القرآنية يتجه نحو بيان الهدف الجديد الذي يتحتم أن تعمل له كل المواهب العربية ويكشف عن الأخطاء السلوكية المانعة من المضي نحو هذا الهدف. ثم يكشف لهم عن قدرة اللّه وقهره فوق العباد، ويتخذ من الترغيب والترهيب طريقاً لزلزلة التجمد المادي الذي سيطر عليهم. ويتخذ كذلك من دلالات العقل إذا استخدم الإمكانيات البسيطة وغير المعقدة، والمتاحة لهم جميعاً حجة على صدق العقيدة الجديدة، وسلطان اللّه على الكون ومن فيه جميعاً. وذلك واضح كل الوضوح في السور الأولى التي نزلت في مكة، وكان هدفها: بناء الجيل الأول من أصلح العرب لمؤازرة الرسول ﷺ في بسط سلطان الدعوة على نطاق أوسع... ويمكن أن يتضح هذا المنهج بسهولة لمن قرأ السور الأولى على ترتيب نزولها، وهي (العلق، ون، والمزمل، والمدثر، والتكوير، والأعلى، والليل، والفجر، والضحى] إلى آخر ما هو معلوم من ترتيب النزول.

وخلاصة ما في هذه السور من عناصر الدعوة: تثبيت قلب الرسول ﷺ وهو يدعو أمة بأسرها، منفرداً عن المال والأعوان، تتوالى عليه الإتهامات، ويتحد ضده جبابرة المال، وأسرى التراث الوثني، وعباد الأهواء، ثم التهوين من شأن المال، والدعوة الى اعتباره وسيلة لا غاية. وتوجيه الانظار الى ما بين أيديهم من ظواهر الحياة يلتمسون منها الدليل على الخالق القادر. وحثهم على اعادة النظر في التواريخ الغابرة التي يقصها عليهم القرآن ممثلاً في عاد، وارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد، وفرعون ذي

الأوتاد، والى أن الله بالمرصاد لكل أمة جنحت عن طريقه، وكفرت بأنعمه.

وكان لابد من هدم الفكرة القبلية والاستعلائية، أو الفكرة العنصرية عند العرب، إذ لا تستقيم دعوة عالمية على أساس من العنصر والقبيلة والجنس، ولم تكن المواعظ وحدها كافية في هذا السبيل، ولذلك نجد الدعوة هنا تتخذ من العمل وسيلة لتأسيس مبدأ المساواة والإخاء أمام العقيدة بين الطبقات والأجناس جميعاً.

كان السابقون إلى الإسلام هم الصورة المثالية لمجتمع الإسلام الذي اعتبر الإيمان غاية الغايات، وبذل في سبيل تلك الغاية كل ما تعارف عليه العرب من التقاليد التي تحول دون تلك الغاية المثلى. فكان مجتمع السابقين يجمع بين كبار الأغنياء وكبار الفقراء، بين الأحرار والعبيد، بين العربي والفارسي والرومي والحبشي، بين البيت الهاشمي والبيت الأموي على ما بينهما من تنافس قديم. وكان إجماع مضيء لأول مرة في التاريخ العربي على أن بلالاً العبد الفقير المستضعف الذي كان في الصف الخلفي دائماً هو سيد سادات المسلمين، حينما اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه، فكانوا يرددون في مجالسهم «سيدنا أعتق سيدنا».

هذا هو الأساس الإجتماعي الذي قامت عليه تلك الركيزة الإيمانية بما لها من تبعات وأخلاق.. وحدة الشعوب والعناصر والطبقات والأجناس في اطار الإسلام.. لقد أصبح الإسلام وحدة هي مقياس الصلاحية، ومناط الفخر، فلا مال، ولا جنس، ولا عصبية، وعاد الإسلام بالمجتمع الأول إلى فطرته الأولى [كلكم آدم وآدم من تراب] وأضبحت رعاية الرحم الأولى للإنسانية غاية الغايات، دون اعتداد بالمنافرات والمفاخرات الجاهلية الهدامة....لقد عاد بلال وسلمان وصهيب إلى مجلس أبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف، وما كان لهم بالأمس أن يرفعوا أبصارهم أمام أولئك السادة إذا استثنينا أبا بكر الصديق الذي كانت له خلائق معينة في الجاهلية أسرعت به إلى الإسلام أول ما سمع به.

ومن عجائب المنهج القرآني للدعوة أن تنزل سورة النحل في مكة وفيها قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾. نزلت هذه الآية والمسلمون يعانون الشدائد في سبيل تكوين المجتمع الأول، ما لهم حول ولا قوة في الأرض إلا الإعتصام بالعقيدة وبالله وحده، نزلت تحفزهم إلى الامام، وتبشرهم بأنهم سيكونون قوة عظمى، تلتزم باجتناب الحروب التي يدفعها حب العظمة والضخامة، وكان إلى جانب ذلك ومن نفس المعين حفز الرسول أصحابه ببشريات تحققت كلها كما أوضحنا من قبل.

وجانب آخر من جوانب الدعوة يتصل اتصالاً وثيقاً بهذا التوجيه القرآني الذي رفع همم الأوائل من مجرد قلة مضطهدة إلى آفاق أمة تسيطر على مقدرات الأمم..ألا وهي التربية العسكرية والسياسية التي لا تستغني عنها أمة يعدها الله لهذا الشأن العظيم.

وكان تشريع الصلاة بمثابة التربية العسكرية إلى جانب كونه وسيلة دائمة لترسيخ العقيدة وإعلائها فوق كل اعتبار. فإعلان وقت الصلاة بمثابة النوبة العسكرية التي يستجيب لها جميع الجنود على الفور. واختيار بعض أوقاتها من الأوقات التي تتراخى فيها الأجساد كالفجر والعصر هو نفس الطريقة التي لجأ إليها العسكريون المحدثون، وصفوف الصلاة بنظامها المشروع هي نفس الصفوف العسكرية، واشتراط الطهارة في مواجهة اشتراط البزة العسكرية المحكمة في المعسكرات دون نظر إلى النجس الذي تنطوي عليه، وإعلان الولاء في صف الصلاة لله وحده في مواجهة إعلان الولاء لراية الدولة وشعارها. ويتفوق الاسلام على جميع النظم العسكرية هنا بالإعتماد على الباعث القلبي والوجدان الإيماني في تنفيذ الأوامر، وبأن المطالبين بالمسارعة إلى الصلاة هم العقلاء من الأمة من سن العاشرة الى ما لا نهاية له من العمر، رجالا ونساء، فالأمة كلها في الاسلام مجندة على طريق الهدى والإيمان.

وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة وما صاحبها من مؤامرات قريش للإيقاع

بالمهاجرين بمثابة التدريب السياسي على التعامل مع الأمم الأخرى دون المساس بالعقيد، حتى لقد نجح المهاجرون نجاحاً منقطع النظير في الجهر بقول القرآن في المسيح أمام النجاشي الذي خشع قلبه للقرآن.

وعلى هذا فقد كانت الدعوة في أول عصر النزول بمكة تعديلاً للنظام العسكري الجاهلي، وتربية للعقيدة في قلوب المؤمنين، وتأسيساً لمجتمع الإسلام البريء من العنصرية والقبلية، وتدريباً للسابقين على احكام التعامل مع الأمم الأخرى. وما كانت الهجرة إلى المدينة إلا وقد استكمل المسلمون صلاحيتهم للعمل والإستقلال بسياسة الأمة، فاستحكم أمرهم، وأصبحت العقيدة هي المثل الأعلى الذي يتسابقون إلى الشهادة في سبيله، بعد أن كانوا يبذلون دماءهم في سبيل المفاخر الزائلة.

أما نزول القرآن بالمدينة فقد أوضح الإمام السيوطي أسرار شطر كبير منه حينما تكلم عن سر ترتيب سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وأثر هذا الترتيب في امتداد الأمة، وخروجها من حيز تربية العقيدة إلى التربية السياسية الشاملة.

وخلاصة القول: أن نزول القرآن بالمدينة كان يهدف إلى تكوين دولة الإسلام بكل مقوماتها في مواجهة دولة الكفر بكل مقوماتها في مكة. وكان الصراع بين هذين النموذجين لدولة الإسلام ودولة الكفر تدريباً حكيماً بالغ الحكمة على الصراع بين أمة القرآن وأمم الكفر على سطح الأرض خارج الجزيرة العربية. وكانت عوامل النصر وعوامل التخاذل، واحكام الأبعاد السياسية في أيام الخندق وأيام الحديبية وأمثالها من المواقف الإسلامية السياسي هي روح الإسلام في السياسة. تلك الروح التي تقدس العهد، وتجنح إلى السلم ان جنح اليه العدو، ولا تقدم على الحرب إلا دفاعاً عن النفس، وافساحاً لطريق الدعوة ان عاقته قوى الكفر. وكانت تشريعات الحلال والحرام والفرائض الأخرى حماية للنفس في زحمة الحياة، وتعقد الأعمال من شطط الهوى، وسلطان الشيطان،

وحفظاً لسلطان الإيمان على القلوب من أن تطغى عليه الإنتصارات، أو تحد من فاعليته زهرة الحياة في الأمم المغلوبة.

وهكذا نلمس الحكمة المعجزة والبليغة في دعوة القرآن، وفي ترتيب القرآن في المصحف وما فيه من دلالة على أنه دستور أمةاستكملتمقوماتها، وبقي عليها أن تدرك أسلوب العمل الديني والسياسي في العالم على هدى هذا الترتيب.

الإمَام السيوطي وكتابه

عاش العالم الإسلامي في محنة قاسية منذ غامت شمس الخلافة العباسية بتسلط الجانب الالحادي من الاعتزال على رأسها ممثلاً في المأمون وفي القول بخلق القرآن، ثم تكاثفت الغيوم بعد ذلك بفعل الترف والمجون، وخمود الوجدان الديني، والصراع بين الثقافات المتعارضة التي اتخذت من أرض الإسلام ميداناً لها، وانتهى الأمر بانحلال الخلافة العباسية، وبلورة الصراع في صورة مشوهة أطلق عليها اسم الخلافة الفاطمية بمصر والمغرب، قال سادتها: انهم من بني فاطمة الزهراء رضي اللّه عنها، وفرضوا بالقوة على المسلمين لوناً ممسوخاً من الفلسفة وسموه علم أسرار الدين، وأسندوا أستاذيته لداهية اليهود يعقوب بن كلس، وعانت مصر الأمرين من مظاهر الإرهاب حينما كانت تعرض رؤوس القتلى على أسنة الرماح في طرقات القاهرة، وحينما تشتد المجاعات نتيجة لاحتكار الخلفاء أقوات الناس، واهتز اليقين في قلوب الناس بشيوع الخرافة حتى سجل أحد قضاة الشام أنه شهد ثوراً يعلن نهاية المجاعات، وحلول رضوان اللّه على الناس، وخربت البلاد نتيجة لصراع العبيد والأتراك والذي كانت تديره جارية دسها تاجر رقيق يهودي لتكون حظية للخليفة الفاطمي، وأما للخليفة المستنصر باللّه. ولم يرض الترك إلا ببيع أثاث قصر الخلافة، وفاء لحقوقهم التي كانوا يطالبون بها، وانتهت الخلافة الفاطمية تاركة وراءها: الخراب، والخرافة، وأوهام الحاكم بأمر اللّه، وآثار الفكر اليهودي المشبوه، والذي كان نتيجة لتحالف قرمطي شيعي، مازالت بعض فلوله تعمل في مجاهل العقول في ديار الإسلام.

وكان من الطبيعي أن يستولي المماليك العبيد المجلوبون من أقاصي آسيا على الحكم في مصر، ولما كان هؤلاء المماليك فرساناً بحكم اقامتهم في المناطق الجبلية، وكانوا يعانون من عقدة الهزيمة والرق، فقد حققوا فروسيتهم في التعصب للاسلام، وصد التتار عن دياره، وفي الثورات التي لم تكن تخمد الا لتثور بين الأمراء، وبين نيران تلك الثورات تخرب البلاد، ويفقد الشعب مقومات حياته، لا سيما وأن الأرض كانت اقطاعاً للامراء والجند، ولم يكن الفلاح المصري سوى جهاز انتاج محروم مما تحظى به الآلات الاخرى من عناية واصلاح.

كانت دولة المماليك بمصر عامرة بالمتناقضات، فبينما كان الأمراء يتصارعون في عنف على شباب [الأويراتية] الذين كانوا يقيمون بالحسينية للممارسة الجنسية الشاذة، ويجبون الضرائب من ضامنات المغاني، وكن بمثابة القوادات آنذاك، كانوا أكثر من اسلافهم الأيوبيين والفاطميين عناية بانشاء المدارسة والخوانق والربط والمكتبات، وإجلال العلماء، ووضعهم موضع الصدارة، ونظرة سريعة الى ما سجله المقريزي من تلك المنشأت في المواعظ والاعتبار تلقي ضوءاً كافياً على النهضة العلمية في جميع فروعها في ذلك العصر.

ولأمر ما أراده الله للاسلام، وسنة سنها في الخلق في عصور التدهور السياسي، والعدوان على الاسلام من الناحية العملية نبغ عدد كبير من العلماء، ومؤلفي الموسوعات، وحفاظ الحديث، والمؤرخين، والذين كانوا يجيدون التأليف في فروع كثيرة من العلم، وكان من هؤلاء ابن حجر العسقلاني، وبدر الدين العيني، والسخاوي والبرهان البقاعي، والسراج البلقيني، والشيخ زكريا الانصاري، وابن خلدون، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، أحد أفراد الزمان علما وتحقيقاً وحفظاً وفقهاً واجتهاداً في مختلف الأصول والفروع.

ولد الامام السيوطي ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة. ويبدو أن أباه كان ذا ميول صوفية، فقد حرص على حمله الى رجل من كبار الأولياء كان مجاوراً للمشهد الحسيني يدعى أبا محمد المجذوب، ليباركه، وحفظ

القرآن كما يحكي عن نفسه وهو ابن ثماني سنين، ويقول: أنه أجيز بتدريس العربية في مستهل سنة ست وستين وثمانمائة، أي وقد بلغ من العمر سبعة عشر عاماً. وفي هذه السن ألف شرحاً للاستعاذة والبسملة، وعرضه على شيخه في الفقه علم الدين البلقيني فكتب له عليه تقريظاً. ولزم العلامة سراج الدين البلقيني بعد وفاة والده علم الدين، وقرأ عليه عدداً كبيراً من الكتب حتى أجازه بالافتاء والتدريس، وحضر حفل تصديره سنة ست وسبعين وثمانمائة، وله من العمر سبعة وعشرون عاماً.

ولما مات شيخه السراج البلقيني لزم الامام الصالح شرف الدين المناوي وواصل عليه دراسة الفقه.

ثم لزم في الحديث والعربية العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي، وواظب على دروسه حتى مات، فلزم الشيخ محيي الدين الكافيجي، الذي وصفه بأنه أستاذ الوجود، ودرس على يديه التفسير، والاصول، والعربية. والمعاني، أربع عشرة سنة، ثم درس على الشيخ سيف الدين الحنفي التفسير وعلوم البلاغة.

ولقد رحل السيوطي في طلب العلم الى الشام، والحجاز، واليمن، والهند، والمغرب، وبلاد التكرور. ويقول: انه لما حج شرب ماء زمزم لأمور منها: أن يصل في الفقه الى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلاني. وعقد مجلس املاء الحديث في مستهل سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، أي وعمره ثلاثة وعشرون عاماً.

ويقول السيوطي: أنه رزق التبحر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبديع، والبيان على طريقة العرب، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة، ويعتقد أنه وصل في هذه العلوم السبعة سوى الفقه الى رتبة لم يصل اليها أشياخه. ولكنه يعود فيقول فيما يروي عنه الشعراني في طبقاته الصغرى: أنه وصل في الفقه الى مرتبة الاجتهاد الداخلي في مذهب الشافعي، وأن لترجيحه رأيا على رأي حجية المجتهد.

ولعل ما نلمسه واضحاً في حديث السيوطي عن نفسه من اعتداد بعلمه ونسبة

التفوق الى نفسه راجع الى عنصر الطموح المبكر الذي صاحب تفوقه بالفعل، اذ أنه طلب العلم وألف فيه في سن مبكرة، وقرأ الآلاف من الكتب، وانقطع للعلم بالفعل، حتى شغله ذلك عما شغل غيره من العلماء، من التهافت على أبواب الحكام ومجالسهم يلتمسون زيف الشهرة في تلك الرحاب الصناعية التي تضفي بريقاً مؤقتاً على أهلها لا يمت الى حقيقة العلم بوشيجة لها وزنها.

ومما دفعه الى الادلال بعلمه خبرته بأخلاق الكثير من علماء العصر، وجنوحه عن منهجهم الى منهج أهل الاستقامة والصلاح والدأب في تحصيل العلم. فهو يقول في ختام كتابه [الاتقان]: وأني في زمان ملأ الله قلوب أهليه من الحسد، وغلب عليهم اللؤم حتى جرى منهم مجرى الدم من الجسد، غلب عليهم الجهل وطمهم، وأعماهم حب الرياسة وأصمهم، قد نكبوا عن علم الشريعة ونسوه، وأكبوا على علم الفلاسفة وتدارسوه، يريد الانسان منهم أن يتقدم ويأبى الله الا أن يزيده تأخيراً. ومع ذلك لا ترى الا أنوفاً مشمخرة، وقلوبا عن الحق مستكبرة، كلما هديتهم الى الحق كان أصم واعمى لهم... وأيم الله ان هذا لهو الزمان الذي يلزم فيه السكوت والمصير حلسا من أحلاس البيوت، ورد العلم الى العمل لولا ما ورد في صحيح الأخبار: «من علم علما فكتمه الجمه الله بلجام من نار».

ولعل هذا الشعور الغالب على الامام السيوطي هو الذي دعاه الى اعتزال، الناس في منزله بالروضة من مدينة القاهرة، والانقطاع للعبادة والتأليف، حتى ألف في ذلك كتاب سماه «التنفيس عن الفتيا والتدريس».

ولم يكن طموح السيوطي دعوى بلا برهان، فقد ألف وأجاد وهو صغير السن، أذ ألف كتابه «التحبير في علوم التفسير» وسنه ثلاثة وعشرون عاماً، وعف عن ارتياد مجالس السلاطين، بل ورد عطاءهم الذي توالى عليه، وألف رسالة لعلماء عصره في دحض مسلكهم الذي درجوا عليه من اللصوق بعطايا السلطان وأعتابه، حتى أنه لما مات لم يتعرض السلطان الغوري لتركته وقال: لم

يقبل الشيخ منا شيئاً في حياته، فلا نتعرض لتركته بعد مماته، وكان قد أرسل له عبداً وألف دينار، فرد الدنانير، وأخذ العبد وأعتقه.

وقد تولى السيوطي بعض الأعمال الرسمية، فقد تولى منصب الإفتاء، ودرس بالمدرسة الشيخونية، ثم بالمدرسة البيبرسية، ولكنه أنف من تلك الأعمال الرسمية، وعزف عنها، وآثر الخلوة الى ربه وكتبه.

ولقد عد السيوطي في مقدمة كتابه «حسن المحاضرة» مؤلفاته فبلغ بها ثلاثمائة كتاب، في التفسير والحديث، والقراءات، والفقه، والتراجم، والنحو، والآداب، والأجزاء المفردة، وقد بلغ «بركلمان» بكتبه أربعمائة وخمسة عشر كتاباً، وسجل نه جميل العظم عدداً ضخماً من الكتب، ولكن ابن اياس ابلغ عدد كتبه الى ستمائة كتاب.

وقد هاجم السيوطي عدد من علماء العصر، منهم شمس الدين السخاوي في الضوء اللامع، وبرهان الدين بن الكركي، وابن الغليف، واحمد بن محمد القسطلاني، ورماه هؤلاء بالسطو على كتب المكتبة المحمودية ونسبتها الى نفسه بعد التصرف فيها بالتقديم والتأخير.

وقد رد السيوطي على هؤلاء رداً عنيفاً، فكتب في ذلك كتباً منها: الكاوي على تاريخ السخاوي، والجواب الزكي على قمامة ابن الكركي، والقول المجمل في الرد على المهمل، وانضم اليه كوكبة من تلاميذه في الرد على خصومه، منهم: قاسم الحنفي، والسراج العبادي، والفخر الديمي، والأمين الاقصراني، والرحماني، وغيرهم.

ولنا بعد ذلك أن نضع الرجل في الميزان، لنجد قمة من شوامخ العلم والحفظ وتنوع الثقافة، والاجادة في الكثير جداً من الكتب، فنحن أمام قمة كالدر المنثور، والمزهر في اللغة، وتاريخ الخلفاء، ومخطوطته الجامعة «البدور السافرة في أحوال الآخرة» والجامع الكبير، وعشرات من أمثالها نقف أمام الرجل في اجلال واحترام واكبار. ولئن صح ـ جدلاً ـ أنه سطا على كتب غيره ونقل منها، فقد

أحيا لنا تراثاً مفقوداً تماما بما أوقفنا عليه من نقول هائلة من تلك الكتب، فله الفضل على أي حال.

أقول: اننا امام رجل اذا وزعت كتبه - التي لا زال العديد الهائل منها مخطوطاً - على سني عمره، ثم على أيامها، فاننا نقف امام رجل أغرق حياته كلها في العلم والتصنيف على صورة تعد من أعاجيب الزمان التي كان في عصره نماذج منها كابن حجر والعيني، وقبل عصره أمثلة لها كابن الجوزي وأبن القيم، فعليه رحمة الله دائماً أبداً بما أسدى لبني دينه وللانسانية كلها من خدمات يقصر عنها الثناء.

وفي ليل الجمعة في التاسع عشر من جمادى الأولى سنة احدى عشرة وتسعمائة أسلم السيوطي روحه الطاهرة الى بارئها، ودفن بحوش قوصون، خارج باب القرافة بالقاهرة، وما زال حياً بيننا بكتبه التي يرجع اليها الباحثون في كل دقيقة من الزمان، متعرضاً بهذا الفضل لنفحات الرحمة الالهية المودعة لمن لم ينقطع عمله بعد موته.

كتاب تناسق الدرر واهميته:

اسم هذا الكتاب «تناسق الدرر في تناسب السور».

ويوجد من هذا الكتاب نسخة واحدة بمصر ضمن مجموعة رقم ٤١٩ تفسير تيمور بدار الكتب المصرية، ويقع في اثنتين وثلاثين ورقة، وعدد سطورها مختلف، بين ثمانية وعشرين سطرا، واثنين وثلاثين سطرا، وهو مكتوب بخط بين النسخ والفارسي، والنسخة جيدة، ويبدو أنها نسخت في عصر المؤلف، كما يدل على ذلك نوع الحبر، وطريقة الكتابة، ويوجد بها بعض الاضطراب في نصوص أمكن تقويمها من أصولها، كحديث تحزيب القرآن الذي جاء على صورة مشوهة للغاية في المخطوطة، وكذلك بعض النقول الاخرى، أما الأخطاء الأخرى فهي قليلة وهينة، ولذلك لم نحتج الى اثباتها في الهامش.

وقد سبق السيوطي في التأليف في هذا الباب فيما نعلم: أبو جعفر بـن الزبير في « البرهان » ويقول السيوطي، أنه لم يقف عليه، وفي عصره برهان الدين البقاعي في « نظم الدرر ».

والكتاب كما يقول السيوطي - صادقاً - من ولاد نظره، ومحض تفكيره، الا ما نقله عن غيره وعزاه اليه وهو قليل، فهو فيما نرى تعقيب على كتاب البقاعي الكبير، واستدراك عليه.

ويقول السيوطي: ان كتابه هذا عجالة من موسوعته الكبرى التي أشار اليها في مقدمة هذا الكتاب، والتي سماها « أسرار التنزيل ». ولم نعثر على اسرار التنزيل للسيوطي. وانما عثرنا على أسرار التنزيل للفخر الرازي، وقد توفي الرازي عن الجزء الأول من أسراره ولم يكمله، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، ولم يشر اليه السيوطي رغم اعجابه بالفخر الرازي الذي ردده من خلال كتابه هذا. فالظاهر أن السيوطي أراد أن يكمل أسرار التنزيل للرازي، أو يكتب كتابا باسمه ينهج فيه منهجاً بعيداً عن اتمامه، رغم أنه أشار الى مسائل في الاتقان قال: انه ذكرها في اسرار التنزيل، مثل تعليل خروج سورة الروم والقلم عن سنن السور المفتحة بالحروف المقطعة في اتباع تلك الحروف بذكر القرآن أو وصفه.

كان الرجل مستجيباً لطموحه، فبدأ في أسرار التنزيل، وانتهى من منهج الرازي الجدلي، ويعارض به موسوعة البقاعي، ولكن الموت عاجله قبل الاتقان وما زال ماضياً في أسراره، وكتب كتابه هذا الذي نقدمه كذلك اثناء سيره في أسراره، اذ أنه أشار اليه في الاتقان مراراً، واشار الى الاتقان في هذا الكتاب مما يدل على أن السيوطي كان يعمل في تأليف عدد من الكتب مرة واحدة، ولا ينقطع لكتاب حتى ينتهي منه، وتلك سمة من سمات الطموح والتطلع والانقطاع للعلم وعلو الهمة.

ولقد انتهى من كتابة هذا الكتاب سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة، وكان قد بلغ

من العمر أربعة وثلاثين عاماً، وقبل وفاته بثمانية وعشرين عاماً، وعلى هذا فالغالب أن أسرار التنزيل له، اما انه لم يتمه، وكان مشروعاً من مشروعاته، وأما أنه أتمه وفقد فيما فقد من التراث، أو توارثه بعض أصحاب المكتبات الخاصة، فالله أعلم بمصيره.

وترجع أهمية هذا الكتاب الى أهمية قضية التراث في عصرنا الحاضر من جهة، والى اهمية هذه الدراسة القرآنية من جهة أخرى.

أما التراث فيتعرض في عصرنا الحاضر لهجمات هزيلة من الأقزام العجزة، وأهل الضحالة والقصور، وأدعياء الفكر، الذين يحكون انتفاخاً صور العمالقة، وهم خواء على هواء في نسيج العنكبوت، قالوا: ان التراث يمثل عصره، ولم يكتفوا بذلك، بل أمعنوا في السخف فقالوا: ان عقلية مؤلفي التراث عقلية ضحلة ضيقة، ودعوا الى كتابات تمثل العصر، ومواجهة المذاهب الهدامة الحديثة. واعتدل بعضهم فقال: ان انتقاء المفيد من التراث امر ضروري، على ان يعرض بأسلوب العصر، وما هذه الدعوة اللئيمة الا استجابة لمخطط يهدف الى صرف العرب والمسلمين عن الاسس التي قامت عليها حضارتهم، وتوجيههم الى لون من غثاء الفكر لا يبدىء ولا يعيد، تكرار لا غناء فيه، فقير في الجديد، عاجز عن مواجهة مذاهب الهدم، فلو انك أحصيت المكرر من الافكار، وحذفته من كتب العصر، ومحوت الحشو من أساليب تلاميذ المدارس الثانوية، لما بقي الا كلمات اما مسروقة من التراث، واما نتيجة لبعض التوجيهات التي خلفها علماء الجيل الماضي. وعلى العكس، لا تجد كتاباً يعارض كتاباً آخر في التراث الا وفيه زيادات مفيدة، وتهذيب لسابقه، أما علاج مذاهب الهدم عن طريق الاساليب الخطابية، واغفال بناء الذات المؤمنة من الجذور، فمثله كمثل من يعالج المصدور بالمساحيق الملونة لوجهه بلون أهل الصحة والشباب، ويترك [الميكروب] يفترس الذات دون هوادة.

وفوق كل ذلك فالتراث هو النسب والصهر بين المسلمين وتاريخهم وثقافتهم،

وأصول حضارتهم، والداعون الى اغفاله كالداعين الى الغاء الشهادات المثبتة للانساب، وأن يستبدل بها من تلك التي تحرر للقطاء المجهولي النسب، ومن هنا كانت أهمية التراث النفسية والعقلية التي لا ينكرها الا أهل الغفلة أو العملاء، وهما شر مستطير وخطير.

وأهمية الدراسات القرآنية ترجع الى أهمية فرع من فروع التراث، واليها ترجع أهمية هذا الكتاب، فقد كثرت كتب التفسير التقليدية، وأهملت الجوانب الأخرى التي لم تتعرض لها التفاسير، أو لم تستوعبها مجتمعة، كموضوع التكرار، والترتيب ومقاصد القرآن، وعجائب الاساليب والمشكلات. وهي موضوعات قد استغلها أعداء الاسلام أسوأ استغلال، وفقد أهل العصر السلاح القوي الكفيل بحماية الشباب والشيوخ من آثار هذا الاستغلال.

لهذا كان هذا الكتاب من أهم ما يجب بعثه ودراسته، الى جانب كتابنا الاول من سلسلة نوادر التراث، وهو «أسرار التكرار في القرآن» للكرماني فهو يحسم القول في مشكلة طال فيها الكلام هي ترتيب السور في القرآن، وقد ضيق السيوطي الخلاف حولها الى أضيق الحدود، ورد عليها، وساق كتابه دليلاً على أن الترتيب توقيفي، وأن القرآن بآياته وترتيبه وحي لا عمل للبشر فيه.

وقديما ذهب الامام بدر الدين الزركشي في البرهان الى أن الخلاف في هذه القضية لفظي، «لأن النبي ﷺ رمز اليهم بالترتيب، لعلمهم بأسباب نزوله، ومواقع كلماته، ولهذا قال مالك: انما الفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبي ﷺ، مع قوله بأن ترتيب السور باجتهاد منهم، فآل الخلاف الى أنه: هل هو بتوقيف قولي، أو بمجرد استناد فعلي، بحيث بقي لهم فيه مجال نظري». وسبقه الى ذلك أبو جعفر بن الزبير.

منهج التحقيق:

بعد نسخ الكتاب من المخطوطة قمت باجراء التحقيقات الآتية:

١ ـ تقويم الاخطاء اللفظية، وتقويمّ الخلل الأسلوبي الواقع في النصوص بالرجوع الى مصادرها من الحديث وأقوال العلماء، حتى أصبحت في صورتها الحقيقية.

٢ ـ مراجعة النصوص القرآنية على المصحف، واثبات سورها وأرقام آياتها بين قوسين عقب الآيات.

٣ ـ اثبات الآيات التي أشار الى موضوعاتها المؤلف ولم يثبتها من واقع المصحف، تماماً لفائدة القارىء، وتوفيراً لوقته، ووضعنا كل ذلك في الهوامش.

٤ ـ اثبات ما فتح الله به من اسرار الترتيب مما لم يذكره المؤلف مؤيداً بالآيات.

٥ ـ تخريج الأحاديث والآثار، ورد أقوال المفسرين الى مصادرها، وكذلك أقوال العلماء ما أمكن ذلك، واثبات المصادر بأرقام أجزائها وصفحاتها.

٦ ـ ضبط الاعلام، والتعريف بالمجهول منها.

٧ ـ وضع دراسة وافية للموضوع تناولت القرآن الكريم، وترتيبه النزولي والمصحفي، وربطت بين الموضوعين ببيان الكثير من أسرار الترتيب التي لم يتعرض لها المؤلف، فقد نظرنا الى الموضوع نظرة شاملة مرتبطة بحضارة الاسلام، والاعتبارات النفسية والتربوية التي عني بها القرآن، واثبات الاعجاز القرآني من خلال تلك الدراسة.

وهذا المنهج في دراسة التراث قد اتبعته من قبل في كتاب [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر] لأبي بكر الخلال، واعتزمت بحول الله أن أتبعه في كل ما أقوم بنشره، حتى تتكامل الموضوعات، ويفيد منها أكبر عدد ممكن من القراء والباحثين، وحتى تحل مشكلة القصور في أداء كتب التراث أهدافها كاملة، فما كان لأهل القرون الماضية أن يدركوا ما سيجد بعد عصورهم من قضايا الحياة

حتى يعصموا المسلمين من آثارها، وهو العمل الذي قمنا به والحمد لله.

٨ - زدنا بعض كلمات أو جمل لتوضيح المعنى، ووضعناها بين علامتين هكذا [ ].

والله نسأل العون على المضي في رسالتنا هذه، وأن يمكن لنا من أسباب خدمة كتابه الكريم، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يرزقنا الاخلاص له وحده فيه، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجزي عنا نبينا ورسولنا سيدنا محمدا ﷺ ما هو أهله، وأن يلحقنا بحزبه، انه سميع قريب مجيب.

عبد القادر احمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي أنزل كتابه المجيد على أحسن أسلوب، وبهر بحسن أساليبه وبلاغة تركيبه القلوب، نزله آيات بينات، وفصله سوراً وآيات، ورتبه بحكمته البالغة أحسن ترتيب، ونظمه أعظم نظام بأفصح لفظ وأبلغ تركيب، صلى الله على من أنزل اليه لينذر به وذكرى، ونزّله على قلبه الشريف فنفى عنه الحرج وشرح له صدراً، وعلى آله وصحبه مُهَاجِرة ونصراً، وبعد:

فإن الله سبحانه منّ عليّ بالنظر في مواقع نجومه، وفتح لي أبواب النظر فيه إلى استخراج ما أودع فيه من علومه، فلا أزال أسرِّح النظر في بساتينه من نوع إلى نوع، وَأَسْتَسِنح[1] الخاطر في ميادينه فيبلغ الغرض ويرجع وهو يقول: لارَوْع، فتقت[2] عن أنواع علومه ولقبتها، وأودعت ما أوعيت منها في دواوين وأعيتها، ونقبت عن معادن معانيه وأبرزتها، وأوقدت عليها نار القريحة وميزتها، وألفت في ذلك جامعاً ومفرداً، ومطنباً ومقصداً[3]، ومن خلق لشيء فإلى تيّسره، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره.

وإن مما ألفت في تعلقات القرآن كتاب «أسرار التنزيل» الباحث عن أساليبه، المبرِز أعاجيبَه، المُبين لفصاحة ألفاظه وبلاغة تراكيبه، الكاشف عن وجه إعجازه، الداخل إلى حقيقته من مجازه، المُطْلِع على أفانينه، المبدع في تقرير

---

(١) أستسنح خاطري: استفحصه، أي: أتأمل به متفحصا.

(٢) فتقت عن كذا: شققت عنه وكشفت عن سره.

(٣) مطنبا من الاطناب، وهو: التطول، ومقصدا من القصد، وهو: الاختصار.

حججه وبراهينه، فإنه اشتمل على بضع عشرة نوعاً.

الأول: بيان مناسبات ترتيب سوره، وحكمة وضع كل سورة منها.

الثاني: بيان أن كل سورة شارحة لما أُجْمِل في السورة التي قبلها.

الثالث: وجه اعتلاق فاتحة الكتاب بخاتمة التي قبلها.

الرابع: مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له، وذلك براعة الاستهلال.

الخامس: مناسبة أوائل السور لأواخرها.

السادس: مناسبات ترتيب آياته، واعتلاق بعضها ببعض، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها.

السابع: بيان أساليبه في البلاغة، وتنويع خطاباته وسياقاته.

الثامن: بيان ما اشتمل عليه من المحسنات البديعية على كثرتها، كالاستعارة، والكناية، والتعريض، والالتفات، والتورية، والاستخدام، واللف والنشر، والطباق، والمقابلة، وغير ذلك، والمجاز بأنواعه، وأنواع الإيجاز والإطناب.

التاسع: بيان فواصل الآي، ومناسبتها للآي التي ختمت بها.

العاشر: مناسبة أسماء السور لها.

الحادي عشر: بيان وجه اختيار مرادفاته دون سائر المرادفات.

الثاني عشر: بيان القراءات المختلفة، مشهورها وشاذها، وما تضمنته من المعاني والعلوم، فإن ذلك من جملة وجوه إعجازه.

الثالث عشر: بيان وجه تفاوت الآيات المتشابهات في القصص وغيرها بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، وابدال لفظة مكان أخرى، ونحو ذلك.

وقد أردت أن أفرد جزءاً لطيفاً في نوع خاص من هذه الأنواع، هو: مناسبات ترتيب السور، ليكون عجالة لمريده، وبغية لمستفيده، وأكثره من نتاج فكري، وولاد نظري، لقلة من تكلم في ذلك، او خاض في هذه المسالك، وما كان فيه لغيري صرحت بعزوه اليه، ولا أذكر منه إلا ما استُحسِن، ولا انتقاد

عليه، وقد كنت أولا سميته « نتائج الفكر في تنـاسـب السـور » لكـونـه مـن مستنتجات فكري كما أشرت اليه، ثم عدلت وسميته « تناسق الدرر في تناسب السور » لأنه أنسب بالمسمى، وأزيد بالجناس.

وبالله تعالى التوفيق، وإياه أسأل حلاوة التحقيق، بمنه ويمنه.

في ترتيب السور

اختلف العلماء في ترتيب السور، هل هو بتوقيف من النبي ﷺ، أو باجتهاد من الصحابة، بعد الإجماع على أن ترتيب الآيات توقيفي، والقطع بذلك.

فذهب جماعة إلى الثاني، منهم: مالك، والقاضي أبو بكر في أحد قوليه، وجزم به ابن فارس.

ومما استدل به لذلك: اختلاف مصاحف السلف في ترتيب السور، فمنهم من رتبها على النزول، وهو مصحف علي، كان أوله «أقرأ» ثم البواقي على ترتيب نزول المكي، ثم المدني، ثم كان أول مصحف ابن مسعود «البقرة» ثم «النساء» ثم «آل عمران» على اختلاف شديد، وكذا مصحف أُبيّ بن كعب وغيره، على ما بينته في الإتقان[1].

وفي المصاحف لابن أشتة بسنده عن عثمان أنه أمرهم أن يتابعوا الطُّول[2].

وذهب جماعة إلى الأول، منهم: القاضي أبو بكر في أحد قوليه، وخلائق قال أبو بكر بن الأنباري: أنزل الله القرآن كله الى سماء الدنيا، ثم فرقه في بضع وعشرين سنة، فكانت السورة تنزل لأمر ينزل، والآية جواباً لمستخبر، ويوقف

---

(١) أنظر هذا الخلاف في المصاحف في الجامع لاحكام القرآن للقرطبي: ٥١/١. والاتقان: ٢١٦/١ وفيه ان ابن فارس يجزم بترتيب الطول والمئين والمفصل بالتوقيف، أما وضع كل مجموعة تلو الأخرى فمن الصحابة.

(٢) انظر الاتقان: ٢١٦/١. من طريق اسماعيل بن عياش الى ابي محمد القرشي، واسماعيل فيه كلام (الضعفاء. من اسمه اسماعيل). وابن أشته هو محمد بن عبد الله بن اشتة أحد العلماء بالعربية والقراءات الف في المصاحف وشواذ القراءات توفي سنة ٣٠٦ (طبقات القراء: ١٨٤/٢).

جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسورة، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كان عن النبي ﷺ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن[1].

وقال الكرماني في البرهان: ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى في اللوح المحفوظ، وهو على هذا الترتيب، وكان يعرض النبي ﷺ على جبريل ما اجتمع لديه منه، وعرضه ﷺ في السنة التي توفي فيها مرتين[2]. وكذا قال الطيبي.

وقال ابن الحصار[3]: [ترتيب السور][4]، ووضع الآيات موضعها إنما كان بالوحي.

وقال البيهقي في المدخل: كان القرآن على عهد النبي ﷺ مرتباً سوره وآياته على هذا الترتيب، إلا الأنفال وبراءة للحديث الآتي فيها.

ومال ابن عطية إلى أن كثيراً من السور كان قد علم ترتيبها في حياته، ﷺ كالسبع الطوال، والحواميم، والمفصل، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده.

وقال أبو جعفر بن الزبير: الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية، ويبقى منها القليل يمكن أن يجري فيه الخلاف، لقوله ﷺ: [اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران]. رواه مسلم[5]. وكحديث سعيد بن خالد أنه ﷺ صلى بالسبع

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١/٦٠ وأسرار التكرار في القرآن ص ٢٣. والاتقان: ١/٢١٧.

(٢) الكرماني: محمود بن حمزة بن نصر. وكتابه « البرهان » نشرناه باسم « اسرار التكرار في القرآن » بدار الاعتصام بالقاهرة، انظر ص ٢٣.

(٣) ابن الحصا وهو: علي بن محمد بن محمد بن ابراهيم الخزرجي الاشبيلي، له مؤلفات منها: أصول الفقه، والناسخ والمنسوخ.... توفي سنة ٦١١ هـ (التكملة لابن الأبار ٦٨٦).

(٤) ما بين الحاصرين زدناه من الاتقان: ١/٢١٦.

(٥) أخرجه مسلم في فضائل القرآن مطولا عن أبي امامة الباهلي: ٢/٩١٣. وابو داود: ١/٨٨، ٨٩ مختصرا والهيثمي في مجمع الزوائد عن عائشة انه ﷺ قرأ البقرة وآل عمران والنساء: ٢/٢٧٢ وعزاه الى أبي يعلى.

الطوال في ركعة، وأنه كان يجمع المفصل في ركعة، أخرجه ابن أبي شيبة(١).
وأنه ﷺ كان إذا أوى الى فراشه قرأ قل هو الله أحد، والمعوذتين. أخرجه البخاري (٢) وفيه عن ابن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: « إنهن من العِتَاق الأول، وهنَّ من تِلادى » (٣).

وقال أبو جعفر النحاس: المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ، لحديث: « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني، وفُضِّلت بالمفصّل ». أخرجه أحمد وغيره(٤). قال: فهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي ﷺ، وأنه من هذا الوقت هكذا.

وقال الحافظ ابن حجر: ترتيب معظم السور توقيفي، لحديث أحمد وأبي داود عن أوس الثقفي قال: كنت في وفد ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: « طرأ عليّ حزبي من القرآن، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه ». قال أوس: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزِّبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل، من « ق » حتى نختم (٥).

---

(١) حديث [السبع الطوال] أخرجه ايضا الهيثمي في مجمع الزوائد: ١٦٢/٧ بلفظ (من أخذ السبع الطوال فهو خير) وعزاه للبزار وأحمد. وأخرج رواية أخرى ٢٧٤/٢ انه قرأ السبع الطوال في ليلة.

وحديث (كان يقرأ المفصل في ركعة) أخرجه مسلم في فضائل القرآن: ٢٠٤/٢ عن عبد الله بن مسعود مطولا وفيه (عشرون سورة من المفصل في ركعة). والبخاري في التفسير: ٢٤٠/٦ وفيه (ثماني عشرة سورة من المفصل).

(٢) أخرجه البخاري في التفسير عن عائشة: ٢٣٣/٦. والترمذي في التفسير: ٣٤٧/٩، ٣٤٨ بتحفة الاحوذي. وفيه أنه كان يجمع يديه، وينفث فيهما، ويقرأ، ويمسح بهما ما استطاع من جسده.

(٣) اخرجه البخاري في التفسير: ١٨٩/٦. والعتاق: اللاتي نزلن قديما بمكة، والتلاد: القديم.

(٤) أخرجه الامام أحمد في المسند: ١٢٤/٣ عن واثلة بن الاسقع، والهيثمي في مجمع الزوائد: ١٥٨/٧ وعزاه للطبراني ايضا عن واثلة وابي أمامة.

(٥) أخرجه أبو داود: ١٤٠/١ وفيه (وحزب المفصل وحده). والإمام أحمد في المسند ٤٣/٥. =

قال: فهذا يدل على أن ترتيب السور ـعلى ما هو عليه في المصحف الآن كان على عهد النبي ﷺ.

وقال بعضهم: لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر من حكيم.

الأول: بحسب الحروف، كما في الحواميم، وذوات [الر].

الثاني: لموافقة آخر السورة لأول ما بعدها. كآخر الحمد في المعنى. وأول البقرة.

الثالث: الوزن في اللفظة. كآخر [تبت] وأول [الإخلاص].

الرابع: لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى، كالضحى وألم نشرح.

وقال بعضهم: إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختمت به السورة التي قبلها، ثم يخفى تارة، ويظهر أخرى.

وأخرج ابن أبي شيبة عن ربيعة: أنه سئل: لم قدمت البقرة وآل عمران. وقد نزل قبلها بضع وثمانون سورة بمكة. وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال: قدمتا، وأُلّفَ القرآن على علم ممن ألّفه. وقد اجتمعوا على علمهم بذلك. فهذا مما ينتهي إليه. ولا يُسْأل عنه [1].

فإن قلت: فما عندك في ذلك؟

قلت: الذي عندي أولاً: تحديد محل الخلاف، وأنه خاص بترتيب سور الأقسام الأربعة، وأما نفس الأقسام الأربعة، من تقديم الطوال، ثم المئين، ثم المثاني، ثم المفصل، فهذا ينبغي أن يقطع بأنه توقيفي، وأن يدعي فيه الإجماع، وإن لم أر من سبقني إلى ذلك. وإنما دعاني إلى هذا أمران:

أحدهما: ما تقدم من الأحاديث قريباً، وحديث ابن عباس الآتي في الأنفال.

= والحديث مضطرب في الأصل، وصححناه من أبي داود.

(١) نقل القرطبي في تفسيره: ٥٢/١ هذا الخبر، وعزاه إلى ابن وهب في جامعه والنص مضطرب في الأصل، وقومناه من القرطبي.

والثاني: أن المصاحف التي وقع فيها الإختلاف في الترتيب اتفقت على ذلك، فإن مصحف أبي بن كعب وابن مسعود كلاهما قدم فيه الطوال، ثم المثاني، ثم المفصل، كمصحف عثمان، وإنما اختلفا في ترتيب سور كل قسم كما بينت في الإتقان (١).

فإذا تحرر ذلك، ونظرنا إلى محل الخلاف، فالمختار عندي في ذلك: ماقاله البيهقي، وهو: أن ترتيب كل السور توقيفي، سوى الأنفال وبراءة.

ومما يدل على ذلك ويؤيده: توالي الحواميم، وذوات [الر]، والفصل بين المسبحات، وتقديم [طس] على القصص، مفصولاً بها بين النظيرتين [طسم الشعراء، وطسم القصص] في المطلع والطول، وكذا الفصل بين الإنفطار والإنشقاق بالمطففين، وهما نظيرتان في المطلع والمقصد، وهما أطول منها، فلولا أنه توقيفي لحكمة لتوالت المسبحات، وأخرت [طس]عن القصص، وأخرت [المطففين] أو قدمت، ولم يفصل بين [الر]و [الر].

وليس هنا شيء أعارض به سوى اختلاف مصحف أبي وابن مسعود، ولو كان توقيفياً لم يقع فيها اختلاف، كما لم يقع في [ترتيب] الآيات.

وقد منّ الله عليّ بجواب لذلك نفيس، وهو: أن القرآن وقع فيه النسخ كثيراً للرسم، حتى لسور كاملة، وآيات كثيرة، فلا بدع أن يكون الترتيب العثماني هو الذي استقر في العرضة الأخيرة، كالقراءات التي في مصحفه، ولم يبلغ ذلك أبيا وابن مسعود، كما لم يبلغهما نسخ ما وضعاه في مصاحفهما من القراءات التي تخالف المصحف العثماني، ولذلك كتب أبي في مصحفه سورة الحفد، والخلع، وهما منسوختان (٢).

---

(١) الإتقان: ١/٢٢٢ - ٢٢٤ نقلاً عن ابن أشتة في المصاحف من راوية أبي جعفر الكوفي وجرير ابن عبد الحميد.

(٢) الإتقان: ١/٢٢٣، ٢٢٦ عن ابن أشتة في المصاحف وهما سورتا القنوت في الوتر، قال الحسين ابن المنادي في كتابه الناسخ والمنسوخ: ومما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه سورتا القنوت في الوتر، وتسمى بسورتي الخلع والحفد (الإتقان: ٣/٨٥). وهي: ﴿اللهم انا =

فالحاصل أني أقول: ترتيب كل المصاحف بتوقيف، واستقر التوقيف في العرضة الأخيرة على القراءات العثمانية، ورتب أولئك على ماكان عندهم، ولم يبلغهم ما استقر، كما كتبوا القراءات المنسوخة المثبتة في مصاحفهم بتوقيف، واستقر التوقيف في العرضة الأخيرة على القراءات المنسوخات، ولم يبلغهم النسخ.

«سورة الفاتحة»

إفتتح سبحانه كتابه بهذه السورة، لأنها جمعت مقاصد القرآن، ولذلك كان من أسمائها: أم القرآن، وأم الكتاب، والأساس[1]. فصارت كالعنوان وبراعة الإستهلال.

قال الحسن البصري: إن الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة. فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان[2].

وبيان اشتمالها على علوم القرآن قرره الزمخشري، باشتمالها على الثناء على الله بما هو أهله، وعلى التعبد، والأمر والنهي، وعلى الوعد والوعيد، وآيات القرآن لا تخرج عن هذه الأمور[3].

قال الإمام فخر الدين: المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة: الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر. فقوله: [الحمد لله رب العالمين] يدل على الإلهيات، وقوله: [مالك يوم الدين] يدل على نفي الجبر،

= نستعينك ونستغفرك، ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم أياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، واليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى عذابك، ان عذابك الجد بالكفار ملحق وانظر (مجمع الزوائد: ٩/١٢٠).

(١) الكشاف: ١/٤ بولاق. ومن اسمائها: السبع المثاني، والقرآن العظيم، والوافية، والكنز (الإتقان: ١/١٨٩ - ١٩١).

(٢) الشعب، ٧٢ ورقة ٨٧ أ. دار الكتب المصرية.

(٣) انظر: الكشاف: ١/٤ وفيه (التعبد بالأمر والنهي).

وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره. وقوله ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخر السورة يدل على إثبات قضاء الله، وعلى النبوات، فقد اشتملت هذه السورة على المطالب الأربعة، التي هي المقصد الأعظم من القرآن[1].

وقال البيضاوي: هي مشتملة على الحكم النظرية، والأحكام العملية، التي هي سلوك الصراط المستقيم، والإطلاع على مراتب السعداء، ومنازل الأشقياء [2].

وقال الطيبي: هي مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التي هي مناط الدين:

أحدها: علم الأصول، ومعاقدة معرفة الله عز وجل وصفاته، وإليها الإشارة بقوله: ﴿رب العالمين. الرحمن الرحيم﴾. ومعرفة المعاد، وهو المومأ إليه بقوله: ﴿مالك يوم الدين﴾.

وثانيها: علم ما يحصل به الكمال، وهو علم الأخلاق، وأجله الوصول إلى الحضرة الصمدانية، والإلتجاء إلى جناب الفردانية، والسلوك لطريقة الإستقامة فيها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾.

قال: وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة، فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً، فإنها واقعة في مطلع التنزيل، والبلاغة فيه: أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله، ولهذا لا ينبغي أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق [3].

وقال الغزالي في «خواص القرآن». مقاصد القرآن ستة، ثلاثة مهمة، وثلاثة تتمة.

---

(١) مفاتيح الغيب: ١/٦٥.

(٢) تفسير البيضاوي: ١/٣٥ بحاشية الشهاب الخفاجي.

(٣) الطيبي هو: الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي الإمام المشهور، وأحد كبار علماء الحديث والتفسير واللغة. توفي عام ٧٤٣هـ. انظر الدرر الكامنة لإبن حجر: ٢/١٥٦، والبدر الطالع للشوكاني: ١/٢٢٩. وبغية الوعاة للسيوطي: ٢٢٨. وكلامه هذا في شرح الكشاف له. مخطوط بالازهرية: ج١ورقة ٢٩ أ.

الأولى: تعريف المدعو إليه، كما أشير إليه بصدرها، وتعريف الصراط المستقيم، وقد صرح به فيها، وتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى، وهو الآخرة، كما أشير إليه بقوله: ﴿مالك يوم الدين﴾.

والأخرى: تعريف أحوال المطيعين، كما أشار إليه بقوله. ﴿الذين أنعمت عليهم﴾. وتعريف منازل الطريق، كما أشير إليه بقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ (١)

« سورة البقرة »

قال بعض الأمة: تضمنت سورة الفاتحة: الإقرار بالربوبية، والإلتجاء إليها في دين الإسلام، والصيانة عن دين اليهود والنصارى، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملة لمقصودها.

فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم، ولهذا ورد فيها كثير من المتشابه لما تمسك به النصارى.

فأوجب الحج في آل عمران، وأما في البقرة فذكر أنه مشروع، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه (٢). وكان خطاب النصارى في آل عمران، كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر، لأن التوراة أصل، والإنجيل فرع لها، والنبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم، وكان جهاده للنصارى في آخر الأمر (٣) كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب، ولهذا كانت السور المكية فيها

---

(١) خواص القرآن الكريم ص ٣٧.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ١٩٦﴾ الآية. من سورة البقرة.

(٣) ثبت في التاريخ أن الرسول ﷺ جاهد اليهود وأخرجهم من دار الإسلام، ولم يحدث مثل ذلك للنصارى وإنما بدأت مجادلة اياهم بوفد نجران الذي تحدثت عنه سورة المائدة. وأخرج الهيثمي في مجمع الزوائد أنه قال لعلي: «يا علي، ان أنت وليت هذا الأمر بعدي، فأخرج أهل نجران من جزيرة العرب» يريد النصارى (١٣٠/٩).

الدين الذي اتفق عليه الأنبياء، فخوطب به جميع الناس، والسور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين، فخوطبوا بيا أهل الكتاب، يابني إسرائيل، يا أيها الذين آمنوا.

وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التي بين الناس، وهي نوعان: مخلوقة لله، ومقدورة لهم، كالنسب والصهر، ولهذا افتتحت بقوله: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾. وقال: ﴿فاتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾[1] فانظر إلى هذه المناسبة العجيبة، والإفتتاح، وبراعة الإستهلال، حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما في أكثر السورة من أحكام: من نكاح النساء ومحرماته، والمواريث المتعلقة بالأرحام، وأن ابتداء هذا الأمر بخلق آدم، ثم خلق زوجته منه، ثم بث منهما رجالاً كثيراً ونساء في غاية الكثرة.

أما المائدة فسورة العقود، تضمنت بيان تمام الشرائع، ومكملات الدين، والوفاء بعهود الرسل، وما أخذ على الأمة، ونهاية الدين، فهي سورة التكميل، لأن فيها تحريم الصيد على المحرم، الذي هو من تمام الإحرام. وتحريم الخمر، الذي هو من تمام حفظ العقل والدين. وعقوبة المعتمدين من السراق والمحاربين، الذي هو من تمام حفظ الدماء والأموال وإحلال الطيبات، الذي هو من تمام عبادة الله، ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد ﷺ، والتيمم، والحكم بالقرآن على كل ذي دين. ولهذا كثر فيها لفظ الإكمال والإتمام[1]. وذكر فيها: أن من ارتد عوض الله بخير منه، ولا يزال هذا الدين كاملاً، ولهذا ورد أنها آخر مانزل[2] لما فيها من إرشادات الختم والتمام. وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات من أحسن الترتيب: انتهى.

وقال بعضهم: افتتحت البقرة بقوله: [ألم ذاك الكتاب لا ريب فيه[2] فإنه

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿اليوم أكلمت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ وأمثالها.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك عن عائشة: ٣١١/٢ وقال صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه والإمام أحمد في المسند عن معاوية بن صالح عن عائشة: ١٨٨/٦.

إشارة إلى الصراط المستقيم في قوله [في الفاتحة]: ﴿ إهدنا الصراط المستقيم﴾. فإنهم لما سألوا[الله] الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه، كما أخرج ابن جرير وغيره من حديث علي مرفوعاً: [الصراط المستقيم كتاب الله] [١]. وأخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود موقوفاً [٢].

وهذا معنى حسن يظهر فيه سر ارتباط البقرة بالفاتحة.

وقال الخويي [٣]: أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة، لأن الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى، قال: قد أعطيتكم ما طلبتم: هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه، وقد أهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسؤول.

ثم إنه ذكر في أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكرهم في الفاتحة: فذكر الذين على هدى من ربهم، وهم المنعم عليهم. والذين اشتروا الضلالة بالهدى، وهم الضالون: والذين باءوا بغضب من الله، وهم المغضوب عليهم [٤]. انتهى.

أقول: قد ظهر لي بحمد الله وجوهاً من هذه المناسبات:

أحدها: أن القاعدة التي استقر بها القرآن: أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجازه. وقد استقر معي ذلك في غالب سور القرآن، طويلها وقصيرها. وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة.

فقوله: [الحمد لله]. تفصيله: ما وقع فيها من الأمر بالذكر في عدة آيات

---

(١) أخرجه ابن جرير عن علي من حديث حمزة الزيات. جامع البيان: ١٧٣/١.

(٢) المستدرك: ٨٣/٤.

(٣) هو أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر أبو العباس. توفي بدمشق عام ٦٢٧ انظر عيون الانباء: ١٧١/٢، شذرات الذهب: ٢٥/٣.

(٤) ذكر السيوطي: أن للخويي تفسيراً نقل عنه في الإتقان (٧/٢، ١٢ و٢٩/٣ و١٤٤/٤) ولم نعثر عليه، ولعل هذا النقل منه.

ومن الدعاء في قوله: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾« ١٨٦ » الآية. وفي قوله: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾« ٢٨٦ ». وبالشكر في قوله: ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾« ١٥٢ ».

وقوله: ﴿رب العالمين﴾ تفصيله قوله: ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ « ٢١، ٢٢ ». وقوله: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾ « ٢٩ ». ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذي هو مبدأ البشر [١]، وهو اشرف الأنواع من العالمين، وذلك شرح لإجمال [رب العالمين].

وقوله: ﴿الرحمن الرحيم﴾. قد أومأ إليه بقوله في قصة آدم: ﴿فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم﴾ « ٥٤ ». وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة [بقوله: ﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن﴾ « ١٢٦ ». فقال: ﴿ومن كفر فأمتعه قليلا﴾ « ١٢٦ ».

وذلك لكونه رحماناً. وما وقع في قصة بني إسرائيل: ﴿ثم عفونا عنكم﴾ « ٥٢ ». إلى أن أعاد الآية بجملتها في قوله: ﴿لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ « ١٦٣ ». وذكر آية الدين [٢] إرشاداً للطالبين من العباد، ورحمة بهم، ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر وما لا طاقة لهم به، وختم بقوله: ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾ « ٢٨٦ ». وذلك شرح قوله: ﴿الرحمن الرحيم﴾.

---

(١) وذلك في قوله: ﴿وإذا قال ربك للملائكة أني جاعل في الأرض خليفة﴾ إلى قوله: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾- « ٢٠ - ٢٧ ».

(٢) هي قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه﴾- (٢٨٢): الآية.

وقوله: ﴿مالك يوم الدين﴾. تفصيله: ما وقع من ذكر يوم القيامة في عدة مواضع، ومنها قوله: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ «٢٨٤». والدين [في الفاتحة]: الحساب [في البقرة].

وقوله: ﴿إياك نعبد﴾ مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفروعية، وقد فصلت في البقرة أبلغ تفصيل، فذكر فيها: الطهارة، والحيض، والصلاة، والاستقبال، وطهارة المكان، والجماعة، وصلاة الخوف، وصلاة الجمع، والعيد، والزكاة بأنواعها، كالنبات، والمعادن، والاعتكاف، والصوم وأنواع الصدقات، والبر، والحج، والعمرة، والبيع، والإجارة، والميراث والوصية، والوديعة، والنكاح والصداق، والطلاق والخلع، والرجعة والإيلاء، والعدة، والرضاع، والنفقات، والقصاص، والديات، وقتال البغاة والردة، والأشربة، والجهاد، والأطعمة والذبائح، والأيمان، والنذور، والقضاء، والشهادات، والعتق.

فهذه أبواب الشريعة كلها مذكورة في هذه السورة.

وقوله: ﴿وإياك نستعين﴾. شامل لعلم الأخلاق. وقد ذكر منها في هذه السورة الجم الغفير، من التوبة، والصبر، والشكر، والرضى، والتفويض، والذكر، والمراقبة، والخوف، والإنة القول.

وقوله: ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخره. تفصيله: ما وقع في السورة من ذكر طريق الأنبياء، ومن حاد عنهم من النصارى، ولهذا ذكر في الكعبة أنها قبلة إبراهيم، فهي من صراط الذين أنعم عليهم، وقد حاد عنها اليهود والنصارى معاً، ولذلك قال في قصتها: ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ «١٤٢». تنبيهاً على أنها الصراط الذي سألوا الهداية إليه.

ثم ذكر: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾ «١٤٥». وهم المغضوب عليهم والضالون الذين حادوا عن طريقهم. ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلى طريقهم. ثم قال: ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط

مستقيم﴾ «٢١٣». فكانت هاتان الآيتان تفصيل إجمال ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخر السورة.

وأيضاً قوله أول السورة: ﴿هدى للمتقين﴾«٢» إلى آخره في وصف الكتاب، إخبار بأن الصراط الذي سألوا الهداية إليه هو: ما تضمنه الكتاب، وإنما يكون هداية لمن اتصف بما ذكر [من صفات المتقين]. ثم ذكر أحوال الكفرة، ثم أحوال المنافقين، وهم من اليهود، وذلك تفصيل لمن حاد عن الصراط المستقيم، ولم يهتد بالكتاب[1].

وكذلك قوله هنا: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ «١٣٦». الآية. فيه تفصيل النبيين المنعم عليهم. وقال في آخرها: ﴿لانفرق بين أحد منهم﴾«١٣٦». تعريفاً بالمغضوب عليهم والضالين الذين فرقوا بين الأنبياء. ولذلك عقبها بقوله: ﴿فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾«١٣٧». أي: إلى الصراط المستقيم، صراط المنعم عليهم كما اهتديتم.

فهذا ما ظهر لي، والله أعلم بأسرار كتابه.

الوجه الثاني: أن الحديث والإجماع على تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى[2]، وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم في الزمان، فعقب بسورة البقرة، وجميع ما فيها [من] خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة، وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب[3].

---

(١) هذا تفصيل للصراط المستقيم عن طريق التبصير بأعداء الصراط المستقيم، والتحذير منهم على وجه التفصيل. وسيأتي تفصيل للصراط المستقيم في آل عمران عن طريق التبصير بالعوائق النفسية التي تحول دون الإنسان وسلوك الصراط المستقيم باعتبار النفس عدواً للإنسان. وبهذا تظهر عظمة الأسلوب القرآني في الإجمال والتفصيل، وفي استيعابه كل شيء.

(٢) أخرج أحمد في مسنده: ٣٧٨/٤ والترمذي: ٢٨٦/٨ - ٢٨٨ بتحفة الأحوذي تفسير النبي ﷺ للمغضوب عليهم والضالين باليهود والنصارى عن عدي بن حاتم. وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٤٦/١.

(٣) وإنما جاء على أسلوب الخبر، كقوله تعالى ﴿أن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى =

ثم [عقبت البقرة] بسورة آل عمران، وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى، فإن ثمانين آية من أولها نازلة في وفد نصارى نجران، كما ورد في سبب نزولها[1] وختمت بقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾«١٩٩». وهي في النجاشي وأصحابه من مؤمني النصارى، كما ورد به الحديث[2]. وهذا وجه بديع في ترتيب السورتين، كأنه لما ذكر في الفاتحة الفريقين، قص في كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب الواقع فيها، ولهذا كان صدر سورة النساء في ذكر اليهود، وآخرها في ذكر النصارى[3].

الوجه الثالث: أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال، ولهذا سميت في أثر: فسطاط القرآن[4]. الذي هو: المدينة الجامعة، فناسب تقديمها على جميع سوره.

الوجه الرابع: أنها أطول سورة في القرآن، وقد افتتح بالسبع الطوال[5]، فناسب البداءة بأطولها.

الوجه الخامس: أنها أول سورة نزلت بالمدينة، فناسب البداءة بها، فإن للأولية نوعاً من الأولوية.

= من آمن بالله واليوم الآخر﴾- (٦٢). وقوله: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾- (١١١) الآية.

(١) أنظر تفسير القرآن العظيم: (٢/٤٠) لمعرفة سبب النزول، وقصة وفد نجران في (سيرة ابن هشام: ١/٥٧٣) وما بعدها.

(٢) في إسلام النجاشي. انظر البخاري في الجنائز: ٢/١٠٨ ومسلم في الجنائز ٣/٥٤، ٥٥. وانظر تفسير الطبري: ٧/٤٩٦.

(٣) وذلك قوله في النساء: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾- (٤٦) وما بعدها. وآخرها قوله: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾- (١٧١) الآية.

(٤) أخرجه الدارمي: ٢/٤٤٦ عن خالد بن معدان.

(٥) السبع الطوال هي: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف ويونس، وسيأتي سبب وضع الأنفال والتوبة بينها.

الوجه السادس: أن سورة الفاتحة كما ختمت بالدعاء للمؤمنين بألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالاً، ختمت سورة البقرة بالدعاء بألا يسلك بهم طريقهم في المؤاخذة بالخطأ والنسيان، وحمل الاصر، ومالا طاقة لهم به تفصيلاً، وتضمن آخرها أيضاً الإشارة إلى طريق المغضوب عليهم والضالين بقوله: ﴿لا نفرق بين أحد منهم﴾« ٢٨٥ » فتآخت السورتان وتشابهتا في المقطع، وذلك من وجوه المناسبة في التتالي والتناسق. وقد ورد في الحديث التأمين في آخر سورة البقرة كما هو مشروع في آخر الفاتحة [١]، فهذه ستة وجوه ظهرت لي، ولله الحمد والمنة.

« سورة آل عمران »

قد تقدم ما يؤخذ منه مناسبة وضعها.

قال الإمام: لما كانت هذه السورة قرينة سورة البقرة، وكالمكملة لها، افتتحت بتقرير ما افتتحت به تلك، وصرح في منطوق مطلعها بما طوى في مفهوم تلك [٢].

وأقول: قد ظهر لي بحمد الله وجوه من المناسبات:

أحدها: مراعاة القاعدة التي قررتها، من شرح كل سورة لإجمال ما في السورة قبلها، وذلك هنا في عدة مواضع:

منها: ما أشار إليه الإمام، فإن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لا ريب فيه. وقال في آل عمران: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾« ٣ »: وذاك بسط وإطناب، لنفي الريب عنه.

---

(١) كان معاذ بن جبل يقول: (آمين) آخر البقرة كما أخرج عنه ابن جرير، رواه وكيع عن سفيان، عن أبي اسحاق، عن رجل، عن معاذ. (تفسير ابن كثير ١/٥٠٩).

(٢) مفهوم مطلع البقرة: الدعوة إلى الإيمان بالله في قوله: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ وهو مصرح به في مطلع هذه بقوله ﴿الله لا اله إلا هو الحي القيوم﴾(٢).

ومنها: أنه ذكر في البقرة إنزال الكتاب مجملاً، وقسمه هنا إلى آيات محكمات، ومتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله [1].

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿وما أنزل من قبلك﴾ «٣» وقال هنا: ﴿وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس﴾ «٣، ٤» مفصلاً. وصرح بذكر الإنجيل هنا، لأن السورة خطاب للنصارى، ولم يقع التصريح به في سورة البقرة بطولها، وإنما صرح فيها بذكر التوراة خاصة، لأنها خطاب لليهود.

ومنها: أن ذكر القتال وقع في سورة البقرة مجملاً بقوله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ «١٩٠، ٢٤٤» [وقوله]: ﴿كتب عليكم القتال﴾ «٢١٦». وفصلت هنا قصة أُحُد بكمالها [2].

ومنها: أنه أوجز في البقرة ذكر المقتولين في سبيل الله بقوله: ﴿أحياء ولكن لا تشعرون﴾ وزاد هنا: ﴿عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾ «١٧٠» الآيتين. وذلك إطناب عظيم.

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء﴾ «٢٤٧». وقال هنا: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ «٢٦». فزاد إطناباً وتفصيلاً.

ومنها: أنه حذر من الربا في البقرة، ولم يزد على لفظ الربا إيجازاً [3]. وزاد هنا [قوله]. ﴿أضعافاً مضاعفة﴾ «١٣٠». وذلك بيان وبسط.

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿وأتموا الحج﴾ «١٩٦» وذلك إنما يدل على

---

(١) وذلك قوله: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾ - (٧) الآية.

(٢) وذلك في قوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم باذنه - (١٥٢) إلى ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون﴾ - (١٥٨).

(٣) وذلك في قوله: ﴿الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من =

الوجوب إجمالاً. وفصله هنا بقوله: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾« ٩٧ » وزاد: بيان شرط الوجوب بقوله: ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾« ٩٧ ». ثم زاد تكفير من جحد وجوبه بقوله: ﴿ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾« ٩٧ ».

ومنها: أنه قال في البقرة في أهل الكتاب: ﴿ثم توليتم إلا قليلاً منكم﴾ « ٨٣ ». فأجمل القليل. وفصله هنا بقوله: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾« ١١٣ ». الآيتين.

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾« ١٩٣ ». فدل بها على تفضيل هذه الأمة على اليهود تعريضاً لا تصريحاً وكذلك قوله: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ « ١٤٣ ». في تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إبهام، وأتى في هذه بصريح البيان فقال: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾« ١١٠ ». فقوله: [كنتم]. أصرح في قدم ذلك من [جعلناكم]. ثم زاد وجه الخيرية بقوله: ﴿تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ « ١١٠ »[1].

ومنها: أنه قال في البقرة: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام﴾« ١٨٨ ». الآية. وبسط الوعيد هنا بقوله: ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾« ٧٧ ». الآية، وصدره

= المس﴾ - (٢٧٥): ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ - (٢٧٦).

(١) ومن الربط الوثيق بين الفاتحة والبقرة وآل عمران: أن الصراط المستقيم ذكر مجملاً في الفاتحة، ثم عينه في أول البقرة بقوله: (ذلك الكتاب). ثم عين طريق السير عليه في آل عمران بقوله: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى الصراط مستقيم﴾- (١٠١).

ثم فصل وسيلة الإعتصام بالله، بالاعتصام بحبل الله، فلما كان الصراط المستقيم دقيقاً جداً، ويحتاج السائر عليه إلى غاية اليقظة، حث الله على الإعتصام بكتاب الله، وسماه حبلاً ليناسب الصراط الدقيق، حيث يحمي السائر عليه من الزلل، وحذر من الفرقة، ودعا إلى التذكير الدائم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي يعتبر بمثابة التعلم الدائم،وتصحيح الأخطاء الناشئة عن الهوى. وانظر لزيادة البيان (نظم الدرر للبقاعي الجزء الأول ورقة: ١٧٧ أ، ب).

بقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾« ٧٥ ».

فهذه عدة مواضع وقعت في البقرة مجملة، وفي آل عمران تفصيلها.

الوجه الثاني: أن بين هذه السورة وسورة البقرة إتحاداً، وتلاحماً متأكداً، لما تقدم من أن البقرة بمنزلة إزالة الشبهة، ولهذا تكرر هنا ما يتعلق بالمقصود الذي هو بيان حقيقة الكتاب: من إنزال الكتاب، وتصديقه للكتب قبله، والهدى إلى الصراط المستقيم.[1] وتكررت هنا آية: ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل﴾ « ١٣٦ ». بكمالها، ولذلك أيضاً ذكر في هذه ما هو تال لما ذكر في تلك، أو لازم في تلك، أو لازم له.

فذكر هناك خلق الناس، وذكر هنا تصويرهم في الأرحام[2]. وذكر هناك مبدأ خلق آدم، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده[3]. وألطف من ذلك: أنه افتتح البقرة بقصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم، وذكر في هذه نظيره في الخلق من غير أب، وهو عيسى عليه السلام[4]، ولذلك ضرب له المثل بآدم، واختصت البقرة بآدم، لأنها أول السور، وآدم أول في الوجود وسابق، ولأنها الأصل، وهذه كالفرع والتتمة لها، فمختصة بالإعراب [والبيان].

ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا في مريم ما قالوا، وأنكروا وجود ولد بلا أب، ففوتحوا بقصة آدم، لتثبت في أذهانهم، فلا تأتي قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشبهها من جنسها.

---

(١) وذلك قوله في أول آل عمران: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾ - (٣، ٤).

(٢) وذلك قوله: ﴿هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو﴾ - (٦).

(٣) خلق آدم في البقرة في قوله: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ - (٣٠) وخلق أولاده في آل عمران في قوله: ﴿وهو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء﴾ - (٦).

(٤) وذلك قوله: ﴿ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ - (٥٩).

ولأن قصة عيسى قيست على قصة آدم في قوله: ﴿كمثل آدم﴾« ٥٩ » الآية، والمقيس عليه لا بد وأن يكون معلوماً، لتتم الحجة بالقياس، فكانت قصة آدم والسورة التي هي فيها جديرة بالتقدم.

ومن وجوه تلازم السورتين: أنه قال في البقرة في صفة النار: ﴿أعدت للكافرين﴾« ٢٤ »، ولم يقل في الجنة: أعدت للمتقين، مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً[1]، وقال ذلك في آخر آل عمران في قوله: ﴿جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين﴾« ١٣٣ ». فكأن السورتين بمنزلة سورة واحدة.

وبذلك يعرف أن تقديم آل عمران على النساء أنسب من تقديم النساء عليها.

وأمر آخر استقرأته، وهو: أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الإتحاد. وفي السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسب لأولها. وآخر آل عمران مناسب لأول البقرة، فإنها افتتحت بذكر المتقين، وأنهم المفلحون، وختمت آل عمران بقوله: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾« ٢٠٠ ».

وافتتحت البقرة بقوله: ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك﴾« ٤ » وختمت آل عمران بقوله: ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم﴾« ١٩٩ ». فلله الحمد على ما ألهم.

وقد ورد أنه لما نزلت: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾« ٢: ٢٤٥ ». قال اليهود: يامحمد، افتقر ربك، فسأل القرض عباده، فنزل قوله: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾« ٣: ١٨١ »[2]. فذلك أيضاً من تلازم السورتين.

---

(١) وذلك قوله في البقرة: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون. ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ - (٥، ٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير: ٤٤٢/٧. وعزاه إلى أبن أبي حاتم وابن مردويه.

ووقع في البقرة حكاية عن إبراهيم: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك﴾« ١٢٩ » الآية. ونزل في هذه: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم﴾« ١٤٦ ». وذلك أيضاً من تلازم السورتين.

« سورة النساء »

تقدمت وجوه مناسبتها.

وأقول: هذه السورة أيضاً شارحة لبقية مجملات سورة البقرة.

فمنها: أنه أجمل في البقرة قوله: ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾« ٢١ ». وزاد هنا: ﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء﴾« ١ ».

وانظر لما كانت آية التقوى في سورة البقرة غاية، جعلها في أول هذه السورة التالية لها مبدأ.[1]

ومنها: أنه أجمل في سورة البقرة: ﴿أسكن أنت وزوجك الجنة﴾« ٣٥ ». وبين هنا أن زوجته خلقت منه في قوله، ﴿وخلق منها زوجها﴾« ١ ».

ومنها: أنه أجمل في البقرة آية اليتامى، وآية الوصية، والميراث، والوارث، في قوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾« ٢٣٣ ». وفصل ذلك في هذه السورة أبلغ تفصيل[2].

وفصل هنا من الأنكحة ما أجمله هناك، فإنه قال في البقرة: ﴿ولأمة مؤمنة

---

(١) آية التقوى في البقرة هي: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ - (٢). وهي غاية، لأن الهداية بالكتاب وبآياته لا تكون إلا للمتقين، فالتقوى غاية الهداية. أما في سورة النساء فقد بدأ الله الأمر بها في قوله: ﴿اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ - (١) الآية. وبين وسائل تحقيقها في نفس الآية.

(٢) وذلك في الآيات (٧، ١١، ١٢، ٣٣، ١٧٦) من سورة النساء.

خير من مشركة﴾ « ٢٢١ » فذكر نكاح الأمة إجمالاً، وفصل هنا شروطه [1].

ومنها: أنه ذكر الصداق في البقرة مجملاً بقوله: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً﴾ « ٢٢٩ ». وشرحه هنا مفصلاً [2].

ومنها: أنه ذكر هناك الخلع، وذكر هنا أسبابه ودواعيه، من النشوز وما يترتب عليه، وبعث الحكمين [3].

ومنها: أنه فصل هنا من أحكام المجاهدين، وتفضيلهم درجات، والهجرة ما وقع هناك مجملاً، أو مرموزاً [4].

وفيها من الاعتلاق بسورة الفاتحة: تفسير: ﴿الذين أنعمت عليهم﴾. بقوله: ﴿من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾« ٦٩ ».

وأما وجه اعتلاقها بآل عمران فمن وجوه:

منها: أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى، وافتتحت هذه السورة به [5]. وهذا من أكبر وجوه المناسبات في ترتيب السور، وهو نوع من البديع يسمى:

---

(١) وذلك في قوله: ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت ايمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ - (٢٥) الآية.

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً﴾ إلى ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾(٢٠، ٢١).

(٣) قال عن الخلع في البقرة: ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ -(٢٢٩) الآية. وهنا قال: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾ إلى ﴿وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾(٣٤، ٣٥). و هذا في أسباب الخلع.

(٤) قال هنا: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾ الى ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ -(٩٥ - ٩٩). وقال هناك: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً بل أحياء﴾ (١٥٤)الآية. ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ (٢١٦) الآية ﴿ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾(٢١٨) الآية.

(٥) ختمت آل عمران بقوله: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾. وافتتحت النساء بقوله: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ الآية.

تشابه الأطراف.

ومنها أن سورة آل عمران ذكر فيها قصة أحد مستوفاة، وذكر في هذه السورة ذيلها، وهو قوله: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ «٨٨». فإنها نزلت لما اختلف الصحابة فيمن رجع من المنافقين من غزوة أحد، كما في الحديث [١].

ومنها: أن في آل عمران ذكرت الغزوة التي بعد أحد بقوله: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح﴾ «١٧٢» [٢]. وأشير إليها هنا بقوله: ﴿ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون﴾ «١٠٤» الآية [٣].

وبهذين الوجهين عرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها عليها في مصحف ابن مسعود، لأن المذكور هنا ذيل ما في آل عمران، ولاحقه وتابعه، فكانت بالتأخير أنسب.

ومنها: أنه ذكر في آل عمران قصة خلق عيسى بلا أب، وأقيمت له الحجة بآدم، وفي ذلك تبرئة لأمه، خلافاً لما زعم اليهود، وتقرير لعبوديته، خلافاً لما ادعته النصارى، وذكر في هذه السورة الرد على الفريقين معاً: فرد على اليهود بقوله: ﴿وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ «١٥٦». وعلى النصارى بقوله: ﴿لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير: ٥٩/٦ عن زيد بن ثابت. ومسلم في المنافقين: ١٢٨/٨. وأحمد في المسند: ١٨٤/٥. وفيه: ان الصحابة اختلفوا فيمن رجع عن غزوة أحد، فقال فريق: بقتلهم. وقال فريق: لا. فنزلت.

(٢) هو يوم حمراء الأسد، كان عقب أحد، وكان الكفار قد ندموا أن لم يدخلوا المدينة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب المسلمين للخروج على ما بهم من جراح، ليريهم ان بهم قوة وجلداً. انظر البخاري: ١٣٠/٥. والمستدرك: ٢٩٨/٢ وسيرة ابن هشام: ١٠١/٢.

(٣) ومن أسرار الترتيب أنه تعالى زاد في سورة محمد تفصيل سبب النهي عن الوهن في قوله: ﴿ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين﴾ (٣٥). فهناك واقعة خاصة، وهذا هام في قانون الحرب.

وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ إلى قوله: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله﴾ « ١٩١ - ٢٧١ ».

ومنها: أنه لما ذكر في آل عمران: ﴿إني متوفيك ورافعك إلي﴾ « ٥٥ ». رد هنا على من زعم قتله بقوله: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً. بل رفعه الله إليه﴾ « ١٥٧ - ١٥٨ ».

ومنها: أنه لما قال في آل عمران في المتشابه[1]: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ « ٧ ». قال هنا: ﴿لكن الراسخون في العلم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك﴾ « ١٦٢ » الآية.

ومنها أنه لما قال في آل عمران: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا﴾ « ١٤ » الآية. فصل هذه الأشياء في السورة التي بعدها على نسق ما وقعت في الآية، ليعلم ما أحل الله من ذلك فيقتصر عليه، وما حرم فلا يتعدى إليه، لميل النفس إليه.

فقد جاء في هذه السورة أحكام النساء، ومباحاتها[2]، للإبتداء بها في الآية السابقة في آل عمران، ولم يحتج إلى تفصيل البنين، لأن تحريم البنين لازم، لايترك منه شيء كما يترك من النساء، فليس فيهم مباح فيحتاج إلى بيانه، ومع ذلك أشير إليهم في قوله: ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ « ٩ ».

---

(١) المتشابه في القرآن يأتي على معنيين: أولهما المتماثل في اللفظ، وهو غير مراد هنا، والثاني ما جاء مؤيداً للواجبات بأصله، رادا بوصفه، فتشابه على السامع علمه من حيث خالف حجة العقل من وجه دون وجه (الأمد الأقصى ورقة ١٢٠ أ).

(٢) وذلك من قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ إلى قوله: ﴿والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ - (٢٢ - ٢٧).

ثم فصل في سورة المائدة أحكام السراق، وقطاع الطريق[1]، لتعلقهم بالذهب. والفضة الواقعين في الآية بعد النساء والبنين. ووقع في سورة النساء إشارة إلى ذلك في قسمة المواريث.

ثم فصل في سورة الأنعام أمر الحيوان والحرث، وهو بقية المذكور في آية آل عمران. فانظر إلى هذه اللطيفة التي من الله بإلهامها!

ثم ظهر لي أن سورة النساء فصل فيها ذكر البنين أيضاً، لأنه لما أخبر بحب الناس لهم، وكان من ذلك إيثارهم على البنات في الميراث، وتخصيصهم به دونهن، تولى قسمة المواريث بنفسه، فقال: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين﴾ «١١». وقال: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب﴾ «٧». فرد على ما كانوا يصنعون من تخصيص البنين بالميراث، لحبهم لهم، فكان ذلك تفصيلاً لما يحل ويحرم من إيثار البنين، اللازم عن الحب، وفي ضمن ذلك تفصيل لما يحل للذكر أخذه من الذهب والفضة، وما يحرم.

ومن الوجوه المناسبة لتقدم آل عمران على النساء: اشتراكها مع البقرة في الإفتتاح بإنزال الكتاب، وفي الإفتتاح ب [الم] وسائر السور المفتتحة بالحروف المقطعة كلها مقترنة، كيونس وتواليها، ومريم وطه، والطواسين، و[الم] العنكبوت وتواليها، والحواميم، وفي ذلك أول دليل على اعتبار المناسبة في الترتيب بأوائل السور.

ولم يفرق بين السورتين من ذلك بما ليس مبدوءاً به سوى بين الأعراف ويونس اجتهاداً لاتوقيفاً، والفصل بالزمر بين [حم] غافرو[ص] وسيأتي.

ومن الوجوه في ذلك أيضاً: اشتراكها في التسمية بالزهراوين في حديث: «اقرءوا الزهراوين: البقرة وآل عمران». فكان افتتاح القرآن بهما نظير اختتامه

(١) وذلك في قوله: ﴿انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا﴾(٣٣) الآية.

بسورتي الفلق والناس، المشتركتين في التسمية بالمعوذتين.

«سورة المائدة»

وقد تقدم وجه في مناسبتها.

وأقول: هذه السورة أيضاً شارحة لبقية مجملات سورة البقرة، فإن آية الأطعمة والذبائح فيها أبسط منها في البقرة[1]. وكذا ما أخرجه الكفار تبعاً لآبائهم في البقرة موجز[2] وفي هذه السورة مطنب أبلغ إطناب في قوله، ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة﴾ «١٠٣، ١٠٤».

وفي البقرة ذكر القصاص في القتلى[3]. وهنا ذكر أول من سن القتل، والسبب الذي لأجله وقع، وقال: ﴿من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما أحيا الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما احيا الناس جميعاً﴾ «٣٢». وذلك أبسط من قوله [في البقرة]: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ «١٧٩».

وفي البقرة: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾ «٥٨». وذكر في قصتها هنا:

---

(١) قال تعالى هنا: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ إلى﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم﴾ - (٣ - ٥)، أما في البقرة فلم يكن هذا التفصيل، اذ قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾. ثم قال: ﴿انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه﴾- (١٧٢ - ١٧٣).

(٢) في البقرة: ﴿يا أيها الناس كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾(١٦٨).

(٣) من دلائل الترتيب أنه قال: ﴿كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ في البقرة (١٧٨). ثم زاده بياناً في نفس السورة فقال: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾(١٧٩). ثم قال: ﴿والحرمات قصاص﴾ (١٩٤). ثم ذكر قتل الخطأ والنسيان في النساء فقال: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة﴾(٩٢). وزاد تفصيل القصاص فيما ساقه المؤلف في الآية (٣٢) المائدة. ثم فصل أحكام القصاص في قوله: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص﴾. (٤٥ المائدة). وهذا تدرج بديع يدل على احكام الترتيب والتلاحم.

﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ « ٥٤ ».

وفي البقرة قصة الإيمان موجزة، وزاد هنا بسطاً بذكر الكفارة[١] .

وفي البقرة قال في الخمر والميسر : ﴿ فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ « ٢١٩ ». وزاد في هذه السورة ذمها، وصرح بتحريمها[٢] .

وفيها من الإعتلاق بسورة الفاتحة : بيان المغضوب عليهم والضالين في قوله ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنة الله وغضب عليه ﴾ « ٦٠ » . الآية . وقوله : ﴿ قد ضلوا من قبل وأضلوا عن سواء السبيل ﴾ « ٧٧ ».

وأما اعتلاقها بسورة النساء، فقد ظهر لي فيه وجه بديع جداً . وذلك أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحاً وضمناً، فالصريح : عقود الأنكحة، وعقد الصداق، وعقد الحلف، في قوله : ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ « ٣٣ ». وعقد الإيمان في هذه الآية. وبعد ذلك عقد المعاهدة والأمان في قوله : ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ « ٩٠ ». وقوله : ﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية ﴾ « ٩٢ ».

والضمني : عقد الوصية، والوديعة، والوكالة، والعارية، والإجارة، وغير ذلك من الداخل في عموم قوله : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ « ٥٨ ». فناسب أن يعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود . فكأنه قيل [في المائدة] : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ « ١ » التي فرغ من ذكرها في السورة التي تمت. فكان ذلك غاية في التلاحم والتناسب والإرتباط .

ووجه آخر في تقديم سورة النساء، وتأخير سورة المائدة، وهو : أن تلك أولها:

---

(١) قال هنا : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين ﴾ - (٨٩).
وقال في البقرة : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم ﴾ (٢٢٥).

(٢) في هذه السورة قال تعالى : ﴿ أنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله ﴾ (٩٠ - ٩١) الآية.

﴿يا أيها الناس﴾ « ١ » وفيها الخطاب بذلك في مواضع، وهو أشبه بخطاب المكي، وتقديم العام [١] وشبه المكي أنسب.

ثم إن هاتين السورتين [النساء والمائدة] في التقديم والإتحاد نظير البقرة وآل عمران، فتلكما في تقرير الأصول، من الوحدانية، والكتاب، والنبوة. وهاتان في تقرير الفروع الحكمية.

وقد ختمت المائدة بصفة القدرة، كما افتتحت النساء بذلك [٢].

وافتتحت النساء ببدء الخلق، وختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء [٣] فكأنهما سورة واحدة، اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى.

ولما وقع في سورة النساء: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس﴾ « ١٠٥ » الآيات. فكانت نازلة في قصة سارق سرق درعاً [٤]، فصل في سورة المائدة أحكام السراق والخائنين.

ولما ذكر في سورة النساء أنه أنزل إليك الكتاب لتحكم بين الناس، ذكر في سورة المائدة آيات في الحكم بما أنزل الله حتى بين الكفار، وكرر قوله: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ « ٤٤، ٤٥، ٤٦ ».

---

(١) يريد بالعام: الخطاب بيا أيها الناس، فهو أعم من: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾. أو ﴿يا أهل الكتاب﴾.

(٢) ختام المائدة قوله تعالى: ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ (١٢٠). وأول النساء: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ (١) الآية. وهو دليل القدرة.

(٣) بدء الخلق في أول النساء قوله: ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ (١) الآية. والمنتهى في ختام المائدة قوله: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ (١١٩) الآية.

(٤) قصة الدرع أخرجها ابن كثير في التفسير: ٣٥٨/٢، ٣٥٩، وعزاها إلى ابن مردويه، من طريق عطية العوفي. ورواه الترمذي في حديث طويل فيه سرقة طعام وسلاح: ٣٩٥/٨ - ٣٩٩ بتحفة الاحوذي. وأخرجه الحاكم في المستدرك ٣٨٥/٤ - ٣٨٨. وانظر ارشاد الرحمن في المتشابه والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وتجويد القرآن للاجهوري ورقة: ١٣٦ أ، ب لزيادة التفاصيل.

فانظر إلى هذه السور الأربع المدنيات، وحسن ترتيبها، وتلاحمها، وتناسقها، وتلازمها.

وقد افتتحت بالبقرة التي هي أول ما نزل بالمدينة، وختمت بالمائدة التي هي آخر ما نزل بها، كما في حديث الترمذي [1].

«سورة الأنعام»

قال بعضهم: مناسبة هذه السورة لآخر المائدة: أنها افتتحت بالحمد، وتلك ختمت بفصل القضاء، وهما متلازمتان كما قال: ﴿وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ «٣٩ : ٧٥».

وقد ظهر لي بفضل الله مع ما قدمت الإشارة إليه في آية ﴿زين للناس﴾. أنه لما ذكر في آخر المائدة. ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن﴾ «١٢٠» على سبيل الإجمال، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله.

فبدأ، بذكر: أنه خلق السموات والأرض، وضم إليه أنه جعل الظلمات والنور، وهو بعض ما تضمنه قوله: ﴿وما فيهن﴾ في آخر المائدة. وضمن قوله: ﴿الحمد لله﴾ [أول الأنعام] أن له ملك جميع المحامد، وهو من بسط: ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن﴾ [في آخر المائدة]:

ثم ذكر: أنه خلق النوع الإنساني، وقضى له أجلاً مسمى، وجعل له أجلاً آخر للبعث، وأنه منشىء القرون قرناً بعد قرن، ثم قال: ﴿قل لمن ما في

---

(١) أخرج الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص: ٨/٤٣٦، ٤٣٧: آخر سورة نزلت المائدة والفتح. وقال المباركفوري: روى الشيخان عن البراء: آخر نزلت ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم﴾. وآخر سورة نزلت براءة. ورد البيهقي هذا التعارض بأن كل واحد أجاب بما عنده. وقال الباقلاني: ليس في هذه الاقوال شيء مرفوع إلى النبي ﷺ وكل واحد قال بضرب اجتهاد (تحفة الاحوذي: ٨/٤٣٦، ٤٣٧). وتنظر (نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلاني ص ١٣٥).

السموات والأرض﴾ «١٢». فأثبت له ملك جميع المنظورات. ثم قال: ﴿وله ما سكن في الليل والنهار﴾ «١٣». فأثبت له ملك جميع المظروفات لظرفي الزمان. ثم ذكر أنه خلق سائر الحيوان، من الدواب والطير، ثم خلق النوم واليقظة، والموت والحياة، ثم أكثر في أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء لما فيهن، من النيرين، والنجوم، وفلق الإصباح، وخلق الحب والنوى، وإنزال الماء، وإخراج النبات والثمار بأنواعها، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات، والأنعام، ومنها حمولة وفرش. وكل ذلك تفصيل لملكه ما فيهن: وهذه مناسبة جليلة.

ثم لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والملك، أكثر فيها من ذكر الرب الذي هو بمعنى المالك والخالق والمنشيء، واقتصر فيها على ما يتعلق بذلك من بدء الخلق الإنساني والملكوتي، والملكي والشيطاني، والحيواني والنباتي، وما تضمنته من الوصايا، فكلها متعلق بالقوام والمعاش الدنيوي، ثم أشار إلى أشراط الساعة.

فقد جمعت هذه السورة جميع المخلوقات بأسرها، وما يتعلق بها، وما يرجع إليها، فظهر بذلك مناسبة افتتاح السور المكية بها[1]، وتقديمها على ما تقدم نزوله منها.

وهي في جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية نظير سورة البقرة في جمعها العلوم والمصالح الدينية. وما ذكر فيها من العبادات المحضة، فعلى سبيل الإيجاز والإيماء، كنظير ما وقع في البقرة من علوم بدء الخلق ونحوه، فإنه على سبيل الإختصار والإشارة.

فإن قلت: فلم لا أفتتح القرآن بهذه السورة، مقدَّمة على سورة البقرة، لأن بدء الخلق مقدَّم على الأحكام والتعبُّدات؟.

---

(١) الأنعام مكية وقد نقل السيوطي ذلك عن ابن الضريس في فضائل القرآن من طريق محمد بن عبد الله الرازي إلى ابن عباس (الإتقان ١/٤٢).

قلت: للإشارة إلى أن مصالح الدين والآخرة مقدمة على مصالح المعاش والدنيا، وأن المقصود إنما هو العبادة، فقدم ماهو الأهم في نظر الشرع[1]، ولأن علم بدء الخلق كالفضْلَة، وعلوم الأحكام والتكاليف متعين على كل واحد. فلذلك لا ينبغي النظر في علم بدء الخلق وما جرى مجراه من التواريخ إلا بعد النظر في علم الأحكام وإتقانه.

ثم ظهر لي بحمد الله وجه آخر، أتقن مما تقدم: وهو. أنه لما ذكر في سورة المائدة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا﴾ [٨٧] إلى آخره، فأخبر عن الكفار أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله افتراء عليه، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئاً مما أحل الله، فيشابهوا بذلك الكفار في صنيعهم وكان ذكر ذلك على سبيل الإيجاز، ساق هذه السورة لبيان ما حرمه الكفار في صنيعهم، فأتى به على الوجه الأبين والنمط الأكمل، ثم جادلهم فيه، وأقام الدلائل على بطلانه، وعارضهم وناقضهم، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة[2] فكانت هذه السورة شرحاً لما تضمنته المائدة من ذلك على سبيل الإجمال، وتفصيلاً وبسطاً، وإتماماً وإطناباً.

وافتتحت بذكر الخلق والملك[3]، لأن الخالق والمالك هو الذي له التصرف في ملكه، ومخلوقاته، إباحة ومنعاً، وتحريماً وتحليلاً، فيجب ألا يتعدى عليه بالتصرف في ملكه.

وكانت هذه السورة بأسرها متعلقة بالفاتحة من وجه كونها شارحة لإجمال قوله: ﴿رب العالمين﴾. وللبقرة من حيث شرحها لإجمال قوله: ﴿الذي خلقكم

---

(١) ولهذا جاء في البقرة: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ (٢١) وليس في القرآن غيره بلفظه. قال الكرماني: العبادة في الآية التوحيد. وهو أول ما يلزم العبد من المعارف. فكان هذا أول خطاب خاطب به العباد في القرآن، ثم ذكر سائر المعارف، وبنى عليها العبادات فيما بعدها من السور والآيات (أسرار التكرار في القرآن: ٢٢).

(٢) وهذا البيان الكامل في قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرا من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾ الى ﴿سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم﴾ (١٣٦ - ١٣٩).

(٣) وذلك قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ الى ﴿وهو الله في السموات والارض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون﴾ (١، ٢).

والذين من قبلكم﴾ « ٢١ ». وقوله: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ « ٢٩ ». وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله: ﴿والأنعام والحرث﴾ « ١٤ ». وقوله: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ « ١٨٥ ». الآية.

وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق، والتقبيح لما حرموه على أزواجهم، وقتل البنات بالوأد.[1]

وبالمائدة من حيث اشتمالها على الأطعمة بأنواعها[2].

وفي افتتاح السور المكية بها وجهان آخران من المناسبة:

الأول: افتتاحها بالحمد.

والثاني: مشابهتها للبقرة، المفتتح بها السور المدنية، من حيث أن كلا منهما نزل مشيعاً. ففي حديث أحمد: [البقرة سنام القرآن وذروته، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا][3]. وروى الطبراني وغيره من طرق: [أن الأنعام شيعها سبعون ألف ملك]. وفي رواية: [خمسمائة ملك][4].

ووجه آخر، وهو: أن كل ربع من القرآن افتتح بسورة أولها الحمد. وهذه للربع الثاني، والكهف للربع الثالث، وسبأ وفاطر للربع الرابع.

---

(١) سيق ما يدل على بدء الخلق، وما حرموه على أزواجهم، أما تقبيح قتل البنات بالوأد فجاء عقبه في قوله تعالى: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله﴾(١٤٠).

(٢) الاطعمة ذكرت هنا مفصلة من قوله تعالى: ﴿وهو الذي انشأ جنات معروشات﴾ إلى قوله: ﴿ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون﴾(١٤١ - ١٤٨).

(٣) أخرجه احمد في المسند: ٢٦/٥ عن معقل بن يسار. وأخرج أوله الترمذي: ١٨١/٨ بتحفة الاحوذي. والدارمي في فضائل القرآن عن ابن مسعود: ٤٤٧/٢. ونزول الملائكة معها اخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣١١/٦ وعزاه للطبراني.

(٤) اخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد عن ابن عمر: ١٩/٧، ٢٠ وفيه (أنزلت جملة واحدة) وفيه ﴿لهم زجل بالتسبيح والتحميد﴾. وعزاه للطبراني وقال: فيه يوسف الصفار، وهو ضعيف. وقال ابن الجوزي: متروك. (العلل المتناهية من اسمه يوسف) ونقل السيوطي عن ابن الصلاح في فتاواه رواية تخالف ذلك: انها لم تنزل جملة، بل نزلت منها آيات بالمدينة، قيل: ثلاث، وقيل: غير ذلك (الاتقان: ١٣٧/١).

وجميع هذه الوجوه التي استنبطتها من المناسبات بالنسبة للقرآن كنقطة من بحر.

ولما كانت هذه السورة لبيان بدء الخلق، ذكر فيها ما وقع عند بدء الخلق، وهو قوله: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ «٥٤». ففي الصحيح: [لما فرغ الله من الخلق، وقضى القضية، كتب كتابا عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي] [1].

«سورة الأعراف»

أقول: مناسبة وضع هذه السورة عقب سورة الأنعام فيما ألهمني الله سبحانه: أن سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق، وقال فيها: ﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ «٢». وقال في بيان القرون: ﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ «٦». وأشير فيها إلى ذكر المرسلين، وتعداد كثير منهم، وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال، لا التفصيل، ذكرت هذه السورة عقبها، لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها.

فبسط فيها قصة خلق آدم أبلغ بسط، بحيث لم تبسط في سورة كما بسطت فيها [2]. وذلك تفصيل إجمال قوله: ﴿خلقكم من طين﴾ «٦: ٢» ثم فصلت قصص المرسلين وأممهم، وكيفية إهلاكهم، تفصيلاً تاماً شافياً مستوعباً، لم يقع نظيره في سورة غيرها [3]، وذلك بسط حال القرون المهلكة ورسلهم، فكانت هذه السورة شرحاً لتلك الآيات الثلاث.

---

(١) اخرجه البخاري في بدء الخلق: ٤/١٢٩. وفيه (كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش).

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ الى: وقال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها (تخرجون) (١١ - ٢٥).

(٣) وذلك من قوله: ﴿لقد أرسلنا نوحا الى قومه﴾ الى ﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ (٥٩ - ١٧٦).

وأيضاً، فذلك تفصيل قوله: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ « ٦ : ١٦٥ ». ولهذا صدَّر هذه السورة بخلق آدم الذي جعله الله في الأرض خليفة[1]. وقال في قصة عاد: ﴿جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ « ٦٩ ». وفي قصة ثمود: ﴿جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ « ٧٤ ».

وأيضاً فقد قال في الأنعام: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ « ١٢ ». وهو موجز، وبسطه هنا بقوله: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ « ١٥٦ » . إلى آخره. فبين من كتبها لهم.

وأما وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر الأنعام فهو: أنه قد تقدم هناك: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه﴾ « ١٥٣ » . وقوله: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه﴾ « ١٥٥ ». فافتتح هذه السورة أيضاً باتباع الكتاب في قوله: ﴿كتاب أنزل إليك﴾ إلى ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ « ٢ ، ٣ ».

وأيضا لما تقدم في الأنعام: ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ « ١٥٩ ». ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ « ١٦٤ ». قال في مفتتح هذه السورة: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين. فلنقصن عليهم بعلم﴾ « ٦ ، ٧ » . وذلك شرح التنبئة المذكورة.

وأيضاً فلما قال في الأنعام: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ « ١٦ » الآية. وذلك لا يظهر إلا في الميزان، افتتح هذه السورة بذكر الوزن، فقال: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ « ٨ ». ثم ذكر من ثقلت موازينه، وهو من زادت حسناته على سيئاته، ثم من خفت موازينه، وهو من زادت سيئاته على حسناته، ثم ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

---

(١) وذلك في الآية رقم (١١) الى آخر الآية رقم (٢٥).

« سورة الأنفال »

أعلم أن وضع هذه السورة وبـراءة هنـا ليس بتـوقيـف مـن الرسـول ﷺ والصحابة، كما هو الراجح في سائر السور، بل اجتهاد من عثمان رضي الله عنه.

وقد كان يظهر في بادىء الرأي: أن المناسب إيلاء الأعراف بيونس وهود، لاشتراك كل في اشتمالها على قصص الأنبياء، وأنها مكية النزول، خصوصاً أن الحديث ورد في فضل السبع الطوال، وعدوا السابعة يونس، وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقي في الدلائل[1]. ففي فصلها من الأعراف بسورتين هما الأنفال وبراءة فصل للنظير عن سائر نظائره، هذا مع قصر سورة الأنفال، بالنسبة إلى الأعراف وبراءة.

وقد استشكل ابن عباس حبر الأمة قديماً ذلك. فأخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال. قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني[2]. وإلى براءة وهي من المئين[3]، فقـرنتم بينهما، ولم تكتبـوا بينهما سطـر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان: كان رسول ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن

---

(١) السبع الطوال كما أخرج النسائي: ١/١١٤ عن ابن عباس: البقرة، وأل عمران، والنساء، والمائدة، والانعام، والأعراف. قال الراوي: وذكر السابعة فنسيتها. وأورد السيوطي نقلا عن ابن أبي حاتم وغيره عن سعيد بن جبير: ان السابعة يونس (الاتقان: ١/٢٢٠).

(٢) المثاني: اما انها من الثناء. أو فيها الثناء والدعاء. أو لانها تثنى بغيرها. (الاتقان: ١/١٩٠) وقيل: لانها ثانية للمئين، تالية لها وقيل: لتثنية الامثال فيها بالعبر. حكاه السيوطي عن النكزاوي (الاتقان: ١/٢٢٠).

(٣) المئين: ما زادت آياتها على المائة أو قاربتها، وهي ما وليت الطوال (الاتقان: ١/٢٢٠).

أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم[1]، ووضعتها في السبع الطوال[2].

فانظر إلى ابن عباس رضي الله عنه، كيف استشكل على عثمان رضي الله عنه أمرين: وضع الأنفال وبراءة في أثناء السبع الطوال، مفصولاً بهما بين السادسة والسابعة، ووضع الأنفال وهي قصيرة مع السور الطويلة. وانظر كيف أجاب عثمان رضي الله عنه أولاً بأنه لم يكن عنده في ذلك توقيف، فإنه استند إلى اجتهاد، وأنه قرن بين الأنفال وبراءة لكونها شبيهة بقصتها في اشتمال كل منهما على القتال، ونبذ العهود، وهذا وجه بيِّن المناسبة جليّ، فرضي الله عن الصحابة، ما أدق أفهامهم! وأجزل آراءهم! وأعظم أحلامهم!

وأقول: يتم بيان مقصد عثمان رضي الله عنه في ذلك بأمور فتح الله بها:

الأول: أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها، لكونها مشتملة على البسملة، فقدمها لتكون لفظة منها، وتكون براءة بخلوها منها كتتمتها وبقيتها، ولهذا قال جماعة من السلف: إن الأنفال وبراءة سورة واحدة، لا سورتان[3].

الثاني: أنه وضع براءة هنا لمناسبة الطول، فإنه ليس في القرآن بعد الأعراف أنسب ليونس طولاً منها، وذلك كاف في المناسبة.

الثالث: أنه خلَّل بالسورتين [الأنفال وبراءة] أثناء السبع الطوال المعلوم

---

(١) قال الباقلاني: انما لم تكتب البسملة أول براءة لأن النبي ﷺ أراد أن يعلم من بعده أن كاتبي فواتح السور لم يكتبوها برأيهم، وانما اتبعوا ما سن وشرع، والا فلا فرق بين براءة وغيرها لو كان من طريق الرأي. وأيضا فان براءة نزلت بالسيف وبعض العهود، وفي البسملة رأفة ورحمة وأمان، فتركت لأجل ذلك (نكت الانتصار لنقل القرآن: ٧٧، ٧٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند: ٥٧/١ وأبو داود في الصلاة: ٢٠٨/١ والترمذي في التفسير: ٤٧٧/٨ - ٤٧٨ والحاكم في المستدرك: ٣٣٠/٢. وانظر الدر المنثور: ٢٠٧/٢ وعزاه السيوطي لابن أبي شيبة والنسائي ولم أجده في النسائي.

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن أبي روق، وابن أبي حاتم عن سفيان، وابن أشتة عن ابن لهيعة (الاتقان: ٢٢٥/١).

ترتيبها في العصر الأول، للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف، وإلى أن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يبين محلها، فوضعا كالموضع المستعار بين السبع الطوال، بخلاف ما لو وضعتا بعد السبع الطوال، فإنه كان يوهم أن ذلك محلها بتوقيف، وترتيب السبع الطوال يرشد إلى دفع هذا الوهم[1].

فانظر إلى هذه الدقيقة التي فتح الله بها، ولا يغوص عليها إلا غواص.

الرابع: أنه لو أخرها وقدم يونس، وأتى بعد براءة بهود، كما في مصحف أبي بن كعب، لمراعاة مناسبة السبع الطوال، وإيلاء بعضها بعضا، لفات مع ما أشرنا إليه آخر آكد في المناسبة. فإن الأولى بسورة يونس أن تولى بالسور الخمس التي بعدها، لما اشتركت فيه من الاشتمال على القصص، ومن الافتتاح بالذكر، وبذكر الكتاب، ومن كونها مكيات، ومن تناسب. ما عدا الحجر في المقدار - وبالتسمية باسم نبي، والرعد اسم[2] ملك، وهو مناسب لأسماء الأنبياء.

فهذه ستة وجوه في مناسبة الاتصال بين يونس وما بعدها، وهي آكد من ذلك الوجه السابق في تقديم يونس بعد الأعراف.

ولبعض هذه الأمور قدمت سورة الحجر على النحل، مع كونها أقصر منها ولو أخرت براءة عن هذه السور الست المناسبة جداً بطولها لجاءت بعد عشر سور أقصر منها بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر، فإنها ليست كبراءة في الطول.

ويشهد لمراعاة الفواتح في مناسبة الوضع ما ذكرنا من تقديم الحجر على النحل

---

(١) أي: وهم أن يكون وضعها بين السبع الطوال بتوقيف. وقد جاء ترتيب السبع الطوال متواليات.

(٢) أخرجه الترمذي من حدث ابن عباس: ١٤٥/٨ أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن الرعد، فقال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب». وذكر السيوطي في الاتقان: ٧٩/٤: ان ابن أبي حاتم أخرجه عن عكرمة، وان مجاهد سئل عن الرعد فقال: ملك. ألم تر الله يقول ﴿ ويسبح الرعد بحمده﴾.

لمناسبة ذوات (الر) قبلها، وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء وإن كانت أقصر منها لمناسبة البقرة، مع الافتتاح بـ (الم)، وتوالى الطواسين والحواميم، وتوالى العنكبوت والروم والقمر والسجدة، لافتتاح كل بـ (الم)، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التي هي أطول منها.

هذا ما فتح الله به.

وأما ابن مسعود فقدم في مصحفه البقرة على النساء، وآل عمران، والأعراف، والأنعام، والمائدة، ويونس، فراعى الطوال، وقد الأطول فالأطول. ثم ثنى بالمئين، فقدم براءة، ثم النحل، ثم هود، ثم يوسف، ثم الكهف، وهكذا الأطول فالأطول، وذكر الأنفال بعد النور[1].

ووجه مناسبتها لها: أن كلا منها مدنية، ومشتملة على أحكام، وأن في النور ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ « ٥٥ » الآية. وفي الأنفال ﴿واذكروا إذ أنتم مستضعفون في الأرض تخافون﴾ « ٢٦ » الآية. ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة، فإن الأولى مشتملة على الوعد بما حصل، وذكَّر به في الثانية. فتأمل.

« سورة براءة »

أقول: قد عرف وجه مناسبتها، ونزيد هنا أن صدرها[2] تفصيل لإجمال قوله في الأنفال: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء﴾ « ٥٨ ». وآيات الأمر بالقتال متصلة بقوله هناك: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ « ٦٠ » الآية. ولذا قال هنا في قصة المنافقين: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ « ٤٦ ».

(١) انظر الاتقان: ٢٢٤/١ نقلا عن ابن أشتة في المصاحف من رواية جرير بن عبد الحميد.

(٢) صدر التوبة: ﴿واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر ان الله بريء من المشركين ورسوله﴾ الى ﴿فاذا انسلخ الأشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ـ (٣ ـ ٥).

ثم بين السورتين تناسب من وجه آخر، وهو: أنه سبحانه في الأنفال تولى قسمة الغنائم، وجعل خُمسها خَمسة أخماس[1]، وفي براءة تولى قسمة الصدقات، وجعلها لثمانية أصناف[2].

« سورة يونس »

أقول: قد عرف وجه مناسبتها فيما تقدم في الأنفال. ونزيد هنا: أن مطلعها شبية بمطلع سورة الأعراف، وأنه سبحانه قال فيها: ﴿أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا﴾ «٢» فقدم الإنذار وعممه، وأخر البشارة وخصصها. وقال تعالى في مطلع الأعراف: ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ «٢». فخص الذكرى وأخرها، وقدم الإنذار، وحذف مفعوله ليعُم.

وقال هنا: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ «٣». وقال في الأوائل، أي أوائل الأعراف مثل ذلك[3].

وقال هنا: ﴿يدبر الأمر﴾ «٣». وقال هناك ﴿مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر﴾ «٥٤».

وأيضاً فقد ذكرت قصة فرعون وقومه في الأعراف، فاختصر ذكر عذابهم، وبسطه في هذه السورة أبلغ بسط[4].

فهي شارحة لما أجمل في سورة الأعراف منه.

---

(١) وذلك قوله: ﴿واعلموا انما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾- (٤١) الآية.

(٢) وذلك قوله: ﴿انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عزيز حكيم﴾ - (٦٠).

(٣) وذلك في قوله: ﴿ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار﴾- (٥٤).

(٤) في عذاب فرعون قال تعالى في الاعراف: ﴿فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا=

« سورة هود »

أقول: وجه وضعها بعد سورة يونس زيادة على الأوجه الستة السابقة: أن سورة يونس ذكر فيها قصة نوح مختصرة جداً، مجملة [1]، فشرحت في هذه السورة وبسطت بما لم يبسطه في غيرها من السور [2]، ولا في سورة الأعراف على طولها، ولا في سورة ﴿إنا أرسلنا نوحاً﴾ التي أفردت لقصته.

فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل في سورة يونس. فإن قوله هناك: ﴿واتبع ما يوحى إليك﴾ «١٠٩» هو عين قوله هنا: ﴿كتاب أُحكمت آياتهُ ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ «٢». [فكان أول هود تفصيلا لخاتمة يونس].

« سورة يوسف »

أقول: وجه وضعها بعد سورة هودَ زيادة على الأوجه الستة السابقة: أن قوله في مطلعها: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ «٣» مناسب لقوله في مقطع تلك: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نُثبت به فؤادك﴾ «١٢٠».

وأيضاً فلما وقع في سورة هود. ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ «٧١». وقوله: ﴿رحمة اللّه وبركاته عليكم أهل البيت﴾ «٧٣». ذكر هنا حال يعقوب مع أولاده، وحال ولده الذي هو من أهل البيت مع إخوته، فكان كالشرح لإجمال ذلك.

= وكانوا عنها غافلين - (١٣٦). وقال في يونس: ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت﴾ الى ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية (٩٠ - ٩٢).

(١) وذلك من قوله: ﴿واتل عليهم نبأ نوح﴾ الى ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ (٧١ - ٧٣).

(٢) وذلك في قوله: ﴿ولقد أرسلنا نوحا الى قومه﴾ الى ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ﴾- (٢٥ - ٤٨).

وكذلك قال هنا: ﴿ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق﴾ «٦». فكان ذلك كالمقترن بقوله في هود: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ «٤٨».

وقد روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول: أن يونس نزلت، ثم هود، ثم يوسف[1]. وهذا وجه آخر من وجوه المناسبة في ترتيب هذه السور الثلاث، لترتيبها في النزول هكذا.

«سورة الرعد»

أقول: وجه وضعها بعد سورة يوسف زيادة على ما تقدم بعد ما فكرت فيه طائفة من الزمان: أنه سبحانه قال في آخر تلك: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ «١٠٥». فذكر الآيات السمائية والأرضية مجملة، ثم فصل في مطلع هذه السورة.

فقوله ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ «٢ - ٤» تفصيل الآيات الأرضية.

هذا مع اختتام سورة يوسف بوصف الكتاب، ووصفه بالحق، وافتتاح هذه بمثل ذلك[2]، وهو من تشابه الأطراف.

---

(١) الإتقان: ٩٧/١ نقلاً عن محمد بن الحارث بن أبيض في جزئه.

(٢) ختام يوسف: ﴿ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (١١١). وافتتاح هذه: ﴿تلك آيات الكتاب والذي أنزل=

« سورة ابراهيم »

أقول: وجه وضعها بعد سورة الرعد زيادة على ما تقدم بعد إفكاري فيه برهة: أن قوله في مطلعها: ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾« ٢ » مناسب لقوله: في مقطع تلك: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾« ٤٣ ». على أن المراد بـ [من] هو: اللّه تعالى جل جلاله.

وأيضاً ففي الرعد: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم﴾« ٣٢ ». وذلك مجمل في أربعة مواضع: الرسل، والمستهزئين، وصفة الإستهزاء، والأخذ. وقد فصلت الأربعة في قوله: ﴿ألم يأتيكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود﴾ « ٩ ـ ١٦ » الآيات [١].

« سورة الحجر »

أقول: تقدمت الأوجه في اقترانها بالسورة السابقة. وإنما أخرت عنها لقصرها بالنسبة إليها، وهذا القسم من سور القرآن للمئين، فناسب تقديم الأطول، مع مناسبة ما ختمت به لمراعاة الختام، وهو قوله: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ « ٩٩ ». فإنه مفسر بالموت [٢]، وذلك مقطع في غاية البراعة.

وقد وقع ذلك في أواخر السور المقترنة. ففي آخر آل عمران: ﴿واتقوا اللّه

= إليك من ربك ولكن أكثر الناس لايؤمنون﴾ (١).

(١) المواضع الأربعة المفصلة لما أجمل في سورة الرعد هي: الرسل. في قوله: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ (٩) الآية.
والمستهزئون، وصفة الإستهزاء، في قوله: ﴿فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا أنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ (٩). وقوله: ﴿ان أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبدآباؤنا﴾ (١٠) ﴿لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾ (١٣). والأخذ، في قوله تعالى ﴿ لنهلكن الظالمين. ولنسكننكم الارض من بعدهم ﴾ (١٣، ١٤).

(٢) أخرجه البخاري عن سالم: ١٠٢/٦. ونفس المعنى أخرجه البخاري في الجنائز وأحمد في المسند: ٤٣٦/٦.

لعلكم تفلحون﴾ « ٢٠٠ ». وفي آخر الطواسين: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه ألا له الحكم وإليه ترجعون﴾ « ٢٨ :٨٨ ». وفي آخر ذوات [الر]: ﴿وانتظر إنهم منتظرون﴾ « ٣٢: ٣٠ ». وفي آخر الحواميم ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ﴾ « ٤٦ : ٣٥ ».

ثم ظهر لي وجه اتصال أول هذه السورة بآخر سورة إبراهيم، فإنه تعالى لما قال هناك في وصف يوم القيامة: ﴿وبرزوا لله الواحد القهار. وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد. سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار﴾ « ٤٨ :٥٠ ». قال هنا: ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ « ٢ » فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار ورأوا عصاة المؤمنين الموحدين قد أخرجوا منها، تمنوا أن لو كانوا في الدنيا مسلمين. وذلك وجه حسن في الربط، مع اختتام آخر تلك بوصف الكتاب، وافتتاح هذه به[1]، وذلك من تشابه الأطراف.

« سورة النحل »

أقول: وجه وضعها بعد سورة الحجر: أن آخرها شديد الإلتئام بأول هذه، فإن في آخر تلك: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ « ٩٩ ». الذي هو مفسر بالموت، ظاهر المناسبة لقوله هنا؛ ﴿أتى أمر الله﴾ « ١ ». وانظر كيف جاء في المقدمة بيأتيك اليقين، وفي المتأخرة بلفظ الماضي، لأن المستقبل سابق على الماضي، كما تقرر في المعقول والعربية[2].

وظهر لي أن هذه السورة شديدة الإعتلاق بسورة إبراهيم، وإنما تأخرت عنها

---

(١) ختام إبراهيم وهذا البلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكر أولو الألباب (٥٢) وافتتاح هذه: ﴿تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ (١)، فكأنهما متصلتان.

(٢) مراد المؤلف أن المضارع سابق على الماضي في الكلام والاخبار، لا في الزمان. فقولك الآن يقوم الناس لرب العالمين يوم القيامة سابق في الخبر، ولا يجوز ان يقال: قام الناس لرب العالمين يوم القيامة إلا بعد تمام ذلك البعث.

لمناسبة الحجر، في كونها من ذوات [الر].

وذلك: أن سورة إبراهيم وقع فيها ذكر فتنة الميت، ومن هو ميت وغيره[1]، وذلك أيضاً في هذه بقوله: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ «٢٨» الآيات. فذكر الفتنة، وما يحصل عندها من الثبات والإضلال، وذكر هنا ما يحصل عقب ذلك من النعيم والعذاب[2].

ووقع في سورة إبرهيم: ﴿وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾ «٤٦». وقيل: إنها في الجبار الذي أراد أن يصعد السماء بالنسور[3]. ووقع هنا أيضاً في قوله: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ «٢٦».

ووقع في سورة إبراهيم ذكر النعم، وقال عقبها: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ «٣٤». ووقع هنا ذكر ذلك معقَّباً بمثل ذلك.

«سورة بني إسرائيل»

أعلم أن هذه السورة والأربع بعدها من قديم ما أنزل. أخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء: [من العتاق الأول، وهن من تلادي[4]]. وهذا وجه في ترتيبها، وهو اشتراكها في قدم النزول، وكونها مكيات، وكونها مشتملة على القصص.

---

(١) وذلك في قوله: ﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ﴾ (١٧٠).

(٢) وذلك في قوله تعالى عن العذاب: ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ (٢٩). وفي النعيم: ﴿جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار﴾ (٣٢).

(٣) يروي أنه جوع نسرين، وأوثق رجل كل منهما في تابوت، وقعد هو وآخر في التابوت ورفع عصا عليها اللحم، فطارا يتبعان اللحم حتى غابا في الجو (تفسير الطبري: ١٦٠/٣).

(٤) أخرجه البخاري في التفسير: ١٨٩/٦ عن ابن مسعود.

وقد ظهر لي في وجه اتصالها بسورة النحل: أنه سبحانه لما قال في آخر النحل: ﴿إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه﴾« ١٢٤ ». فسَّر في هذه شريعة أهل السبت وشأنهم، فذكر فيها جميع ما شرع لهم في التوراة، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: [التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل] [١]. وذكر عصيانهم وفسادهم، وتخريب مسجدهم، ثم ذكر استفزازهم للنبي ﷺ، وإرادتهم إخراجه من المدينة، ثم ذكر سؤالهم إياه عن الروح، ثم ختم السورة بآيات موسى التسع، وخطابه مع فرعون، وأخبر أن استفزازهم للنبي ﷺ ليخرجوه من المدينة هو وأصحابه كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم، ووقع ذلك أيضاً.

ولما كانت هذه السورة مصدَّرة بقصة تخريب المسجد الأقصى أُسرِي بالمصطفى إليه، تشريفاً له بحلول ركابه الشريف. فلله الحمد على ما ألهم.

« سورة الكهف »

قال بعضهم: مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء: افتتاح تلك بالتسبيح، وهذه بالتحميد [١]، وهما مقترنان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد، نحو: ﴿فسبح بحمد ربك﴾ « ١٥ : ٩٨ : ٢٠ : ١٣ و ٤٠ : ٥٥ و ٥٠ : ٣٩ و ٥٢ : ٤٨ ». وسبحان الله وبحمده.

قلت: مع اختتام ما قبلها بالتحميد أيضاً [٢]، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف.

---

(١) تفسير ابن جرير: ٢٤٣/١٧.

(٢) وسبب آخر ذكره ابن الزملكاني هو: أن سورة الإسراء اشتملت على الإسراء الذي كذب به المشركون وكذبوا الرسول ﷺ من أجله، وتكذيبه تكذيب لله، فأتى بسبحان تنزيهاً لله عما نسب إلى نبيه من الكذب.وسورة الكهف لما نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخر الوحي، نزلت مبينة أن الله لم يقطع نعمته عن رسوله ولا المؤمنين فناسب افتتاحها بالحمد (الاتقان: ٣٨٧/٣).

(٣) ختام الإسراء: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾(١١١) الآية.

ثم ظهر لي وجه آخر أحسن في الإتصال. وذلك: أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء: عن الروح، وعن قصة أصحاب الكهف، وعن قصة ذي القرنين[١]. وقد ذكر جواب السؤال الأول في آخر سورة بني إسرائيل، فناسب اتصالها بالسورة التي اشتملت على جواب السؤالين الآخرين.

فإن قلت: هلا جمعت الثلاثة في سورة واحدة؟

قلت: لما لم يقع الجواب عن الأول بالبيان[٢]، ناسب فصله في سورة.

ثم ظهر لي وجه آخر: وهو أنه لما قال فيها: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾« ٥٨ ». والخطاب لليهود، واستظهر على ذلك بقصة موسى في بني إسرائيل مع الخضر، التي كان سببها ذكر العلم والأعلم[٣]، وما دلت عليه من إحاطة معلومات الله عز وجل التي لا تحصى، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل لما ذكر من الحكم.

وقد ورد في الحديث أنه لما نزل: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ قال اليهود: قد أوتينا التوراة، فيها علم كل شيء، فنزل: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ « ١٠٩ » في هذه السورة[٤]. فهذا وجه آخر في المناسبة. وتكون السورة من هذه الجهة جواباً عن شبهة الخصوم فيما قدر بتلك.

وأيضاً فلما قال هناك: ﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾« ١٠٤ »

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ١٣٧/٥.

(٢) لم يقع الجواب بالبيان، وانما وقع باسناد علم الروح إلى الله: ﴿قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ - (٨٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٢٥٥/١ وفيه أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً.

(٤) وفي رواية لإبن جرير في التفسير: ١٠٤/١٥: فنزلت: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ الآية.

شرح ذلك هنا وبسطه، بقوله: ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء﴾ إلى ﴿ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً. وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ «٩٨: ١٠٠» فهذه وجوه عديدة في الإتصال.

«سورة مريم»

أقول: ظهر لي في وجه مناسبتها لما قبلها: أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب: قصة أصحاب الكهف، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة بلا أكل ولا شرب، وقصة موسى مع الخضر، وما فيها من الخارقات، وقصة ذي القرنين. وهذه السورة فيها أعجوبتان. قصة ولادة يحي بن زكريا [1]، وقصة ولادة عيسى، فناسب تتاليها.

وأيضاً فقد قيل: إن أصحاب الكهف يبعثون قبل قيام الساعة، ويحجون مع عيسى ابن مريم حين ينزل [2]، ففي ذكر سورة مريم بعد سورة أصحاب الكهف مع ذلك ـ إن ثبت ـ ما لا يخفى من المناسبة.

وقد قيل أيضاً: إنهم من قوم عيسى، وإن قصتهم كانت في الفترة، فناسب توالي قصتهم وقصة نبيهم [3].

«سورة طه»

أقول: روينا عن إبن عباس وجابر بن زيد في ترتيب النزول: أن طه نزلت بعد سورة مريم، بعد ذكر سورة أصحاب الكهف. وذلك وحده كاف في مناسبة الوضع، مع التآخي بالإفتتاح بالحروف المقطعة.

(١) ولادة يحي كانت عجيبة، لأن أمه كانت قد بلغت سن اليأس، وأباه قد بلغ من الكبر عتياً، فلا ينجب مثلها أبداً.

(٢) لم نعثر على هذا الرأي فيا بين أيدينا من مصادر.

(٣) قال ابن كثير: الظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية، لان اليهود أشاروا على قريش بسؤال النبي ﷺ عنهم، فدل على أنه محفوظ قبل عيسى. (تفسير ابن كثير: ١٣٧/٥).

وظهر لي وجه آخر، وهو: أنه لما ذكر في سورة مريم قصص عدة من الأنبياء، وهم. زكريا، ويحيى، وعيسى، الثلاثة مبسوطة. وإبراهيم، وهي بين البسط والإيجاز. وموسى، وهي موجزة بجملة [١] أشار إلى بقية النبيين في الآية الأخيرة إجمالاً [٢]. وذكر في هذه السورة شرح قصة موسى، التي أجملها هناك، فاستوعبها غاية الإستيعاب، وبسطها أبلغ بسط [٣]، ثم أشار إلى تفصيل قصة آدم، الذي وقع مجرد اسمه هناك [٤]. ثم أورد في سورة الأنبياء بقية قصص من لم يذكر في مريم، كنوح، ولوط، وداود، وسليمان، وأيوب وذي الكفل، وذي النون، وأشير إلى قصة من ذكرت قصته إشارة وجيزة، كموسى، وهارون، وإسماعيل، وزكريا، ومريم، لتكون السورتان كالمتقابلتين.

وبسطت فيها قصة إبراهيم البسط التام فيما يتعلق به مع قومه، ولم تذكر حاله مع أبيه إلا إشارة [٥]. كما أنه في سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة، ومع أبيه مبسوطا [٦]. فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب، وبديع هذا الترتيب.

---

(١) وردت قصة موسى في ثلاث آيات قصار من مريم (٥١، ٥٢، ٥٣).

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿أولئك الذين أنعم الله من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا﴾ (٥٨) الآية.

(٣) وذلك في قوله: ﴿وهل آتاك حديث موسى﴾ الى ﴿ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾ (٩ ـ ٩٧).

(٤) وقع مجرد ذكر اسم آدم في مريم في قوله: ﴿من ذرية آدم﴾ (٥٨). وذكرت قصته مفصلة في طه من قوله: ﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ الى ﴿قلنا اهبطوا منها جيعاً بعضكم لبعض عدو﴾ (١١٦ - ١٢٣).

(٥) قصة ابراهيم في الانبياء وردت في قوله: ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده﴾ (٥١) الآية الى: ﴿وكانوا لنا عابدين﴾ (٧٣). وكلها في ابراهيم وقومه. اما عن ابراهيم وأبيه فاشير اليها في قوله ﴿اذ قال لأبيه وقومه﴾ (٥٢) الآية.

(٦) وردت قصة ابراهيم وأبيه في مريم من قوله تعالى: ﴿اذ قال ابراهيم لابيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر﴾ (٤٢) الى ﴿سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا﴾ (٤٧). وجاءت الاشارة اليه مع قومه في قوله تعالى: ﴿واعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ (٤٨) الآية.

« سورة الأنبياء »

قدمت ما فيها مستوفى. وظهر لي في اتصالها بآخر طه: أنه سبحانه لما قال: ﴿قل كل متربص فتربصوا﴾ « ١٣٥ ». وقال قبله: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجلا مسمى﴾ [١٢٩]. قال في مطلع هذه: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ « ١ » إشارة إلى قرب الأجل، ودنو الأمل المنتظر.

وفيه أيضا مناسبة لقوله هناك: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ « ١٣١ » الآية. فإن قرب الساعة يقتضي الإعراض عن هذه الحياة الدنيا، لدنوها من الزوال والفناء، ولهذا ورد في الحديث: أنها لما نزلت قيل لبعض الصحابة: هلا سألت النبي ﷺ عنها؟ فقال: [نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا] [١].

« سورة الحج »

أقول: وجه اتصالها بسورة الأنبياء: أنه ختمها بوصف الساعة في قوله: ﴿واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا﴾ « ٩٧ ». وافتتح هذه بذلك، فقال: ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تذهل كل مرضعةٍ عما أرضعت وتضعُ كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ – « ١، ٢ ».

« سورة المؤمنون »

أقول: وجه اتصالها بسورة الحج: أنه لما ختمها بقوله: ﴿وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ « ٧٧ ». وكان ذلك مجملاً، فصّله في فاتحة هذه السورة، فذكر خصال الخير التي من فعلها فقد أفلح، فقال: ﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ « ١ – ٦ ». الآيات.

---

(١) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر.

ولما ذكر أول الحج قوله: ﴿يا أيها النّاس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة﴾ « ٥ » الآية. زاده هنا بياناً في قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ « ١٢، ١٣ » الآيات. فكل جملة أوجزت هناك في القصد أطنب فيها هنا.

« سورة النور »

أقول: وجه اتصالها بسورة قد أفلح: أنه لما قال: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ « ٥ ». ذكر في هذه أحكام من لم يحفظ فرجه، من الزانية والزاني، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغض البصر [١]، وأمر فيها بالنكاح حفظاً للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف، وحفظ فرجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا [٢].

ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط، ولا تناسق أبدع من هذا النسق.

« سورة الفرقان »

ظهر لي بفضل الله بعدما فكرت في هذه: أن نسبة هذه السورة لسورة النور، كنسبة سورة الأنعام إلى المائدة.

---

(١) الزانية والزاني في قوله: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾. الى ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ (٢، ٣).
وجاء القذف في قوله: ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ الى ﴿وان الله تواب رحيم﴾ (٦ - ١٠). وهو شامل لاحكام اللعان.
وقصة الافك هي التي أرجف بها المنافقون في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حتى برأها الله تعالى: ﴿ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم﴾ الى ﴿والله عزيز حكيم﴾ (١٢ - ١٨).
وجاء غض البصر في قوله: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ الى ﴿وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ (٣٠ - ٣١).

(٢) جاء الأمر بالكناح، والاستعفاف لغير القادر، وعدم اكراه الفتيات على البغاء في الآيات (٣٢ - ٣٣).

من حيث ان النور قد ختمت بقوله: ﴿لله ما في السموات والأرض﴾ « ٦٤ » كما ختمت المائدة بقوله. ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن﴾ « ١٢٠ ».

وكانت جملة النور أخصر من المائدة، ثم فصلت هذه الجملة في سورة الفرقان فافتتحت بقوله. ﴿الذي له ملك السموات﴾ إلى قوله. ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ « ٢ ». كما افتتحت الأنعام بمثل ذلك[1]. وكان قوله عقبه. ﴿واتخذوا من دونه آلهة﴾ « ٣ » إلى آخره، نظير قوله هناك. ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ « ١ ».

ثم ذكر في خلال هذه السورة جملة من المخلوقات، كمدّ الظل، والليل، والنوم، والنهار، والرياح، والماء، والأنعام، والأناسي، ومرج البحرين، والإنسان، والنسب، والصِّهر، وخلق السموات والأرض في ستة أيام، والاستواء على العرش، وبروج السماء، والسراج، والقمر، إلى غير ذلك، مما هو تفصيل لجملة: ﴿لله ما في السموات والأرض﴾[2]. كما فصل آخر المائدة في الأنعام بمثل ذلك[3]. وكان البسط في الأنعام أكثر لطولها.

ثم أشار في هذه السورة إلى القرون المكذبة وإهلاكم، كما أشار في الأنعام إلى ذلك[4]. ثم أفصح عن هذه الإشارة في السورة التي تليها وهي الشعراء بالبسط

(١) افتتاح الانعام قوله تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ (١) الآية.

(٢) جميع هذه المعاني جاءت في قوله تعالى: ﴿ألم تر الى ربك كيف مد الظل﴾ الى قوله: ﴿تبارك الذي جعله في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾ (٤٦ - ٦١).

(٣) هذا التفصيل جاء في الأنعام مفرقا في الآيات: (١٣، ١٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٥، ٧٣، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩).

(٤) تفصيل أحوال القرون المكذبة واهلاكهم في الفرقان في قوله: ﴿فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا﴾ الى ﴿وكلا تبرنا تتبيرا﴾ (٣٦ - ٣٩). وفي الانعام في قوله: ﴿قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ (١١).

التام، والتفصيل البالغ [1]، كما أوضح تلك الإشارة التي في الأنعام، وفصلها في سورة الأعراف التي تليها [2].

فكانت هاتان السورتان [الفرقان والشعراء] في المثاني، نظير تينك السورتين [الأنعام والأعراف] في الطوال، واتصالها بآخر النور، نظير اتصال تلك بآخر المائدة، المشتملة على فصل القضاء [3].

ثم ظهر لي لطيفة أخرى، وهي. أنه إذا وقعت سورة مكية بعد سورة مدنية، افتتح أولها بالثناء على الله، كالأنعام بعد المائدة، والإسراء بعد النحل، وهذه بعد النور، وسبأ بعد الأحزاب، والحديد بعد الواقعة، وتبارك بعد التحريم [4]، لما في ذلك من الإشارة إلى نوع استقلال، وإلى الإنتقال من نوع إلى نوع.

« سورة الشعراء »

أقول. وجه اتصالها بسورة الفرقان أنه تعالى لما أشار فيها إلى قصص مجملة بقوله. ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً. فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً، وقوم نوح لما كذبوا الرسل

---

(١) جاء ذلك في الآيات (٦٤ - ١٨٩) حيث جاء عن قوم كل رسول تكذيبهم اياه، ووسيلة اهلاكهم.

(٢) تفصيل أحوال القرون المكذبة جاء في الاعراف من قوله: ﴿لقد ارسلنا نوحا﴾ الى ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾(٥٩ - ١٧٨).

(٣) آخر المائدة ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ (١٢٠) وهو يشتمل على فصل القضاء ضمنا. وأول الانعام ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والارض﴾ (١) الآية.

(٤) قول المؤلف: والاسراء بعد النحل، لا يتفق مع قاعدته، فكلاهما مكي، وقوله: والحديد بعد الواقعة، عكس قاعدته، فالواقعة مكية، والحديد مدنية، وهناك سور مكية جاءت بعد المدنية وافتتحت بالثناء على القرآن، كيونس بعد التوبة، وابراهيم بعد الرعد، والنحل بعد الشعراء، وق بعد الرحمن، والثناء على القرآن ثناء الله ضمنا.

وهناك مكيات بعد مدنيات لم تفتح بالثناء على الله، كالواقعة بعد الرحمن.

أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً، وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ « ٣٥ - ٣٨ ». شرح هذه القصص، وفصلها أبلغ تفصيل في الشعراء التي تليها، ولذلك رتبت على ترتيب ذكرها في الآيات المذكورة. فبدىء بقصة موسى[1]، ولو رتبت على الواقع لأخرت كما في الأعراف.

فانظر إلى هذا السر اللطيف الذي من الله بإلهامه.

ولما كان في الآيات المذكورة قوله. ﴿وقروناً بين ذلك كثيراً﴾. زاد في الشعراء تفصيلاً لذلك قصة قوم ابراهيم، وقوم لوط، وقوم شعيب.

ولما ختم الفرقان بقوله: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ «٦٣». وقوله: ﴿وإذامروا باللغو مروا كراماً﴾ «٧٢». ختم هذه السورة بذكر الشعراء الذين هم بخلاف ذلك، واستثنى منهم من سلك سبيل أولئك، وبين ما يمدح من الشعر، ويدخل في قوله. ﴿سلاماً﴾. وما يذم منه، ويدخل في اللغو[2].

« سورة النمل »

أقول: وجه اتصالها بما قبلها: أنها كالتتمة لها، في ذكر بقية القرون، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان، وداود، وبسط فيها قصة لوط أبسط مما هي في الشعراء[3].

---

(١) بدىء بقصة موسى: من قوله: ﴿واذ نادى ربك موسى﴾ (١٠) وما بعدها. ثم نوح في قوله: ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ (١٠٥) وما بعدها. ثم عاد من قوله: ﴿كذبت عاد المرسلين﴾ (١٢٣) وهكذا على ترتيب آيات الفرقان.

(٢) وذلك في قوله: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ (٢٢٤) الى آخر السورة (٢٢٧).

(٣) قصة داود وسليمان في قوله: ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علما﴾ الى ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ (١٥ - ٤٤). وقصة لوط في قوله: ﴿ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة﴾ إلى ﴿فساء صباح المنذرين﴾ (٥٤ - ٥٨).

وقول المؤلف: ان قصة لوط هنا أبسط منها في الشعراء مخالف للواقع، فهي في الشعراء أطول، ولكنها ذكرت في النمل مع بيان أقصى ما وصلوا اليه من الانحلال الخلقي والانتكاس =

وقد روينا عن ابن عباس، وجابر بن زيد، في ترتيب السور: أن الشعراء أنزلت، ثم طه، ثم القصص. ولذلك كان ترتيبها في المصحف هكذا.

وأيضاً فقد وقع فيها: ﴿وإذ قال موسى لأهله امكثوا إني آنست ناراً﴾ «٧» إلى آخره. وذلك تفصيل قوله في الشعراء: ﴿فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين﴾ «٢١».

«سورة القصص»

أقول: ظهر لي بعد الفكرة: أنه سبحانه لما حكى في الشعراء قول فرعون لموسى. ﴿ألم نر بك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ «١٨، ١٩». إلى قول موسى. ﴿ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين﴾ «٢١». وقال في طس النمل قول موسى لأهله: ﴿إني آنست ناراً﴾ «٧» إلى آخره، الذي هو في الوقوع بعد الفرار، ولما كان على سبيل الإشارة والإجمال، بسط في هذه السورة ما أوجز في السورتين، وفصل ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما.

فبدا بشرح تربية فرعون له، مصدراً بسبب ذلك: من علو فرعون، وذبح أبناء بني إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عند ولادته في اليم خوفاً عليه من الذبح، وبسط القصة في تربيته، وما وقع فيها إلى كبره، إلى السبب الذي من أجله قتل القبطي، وهي الفعلة التي فعل، إلى الهم بذلك عليه، والموجب لفراره إلى مدين[1]، إلى ما وقع له مع شعيب، وتزوجه بابنته، إلى أن سار بأهله، وآنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله: ﴿امكثوا إني آنست نارا﴾، إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربه، وبعثه إياه رسولا، وما استتبع ذلك، إلى آخر القصة.

= العقلي، اذ عدوا طهارة لوط من الشذوذ الجنسي جريمة يستحق عليها النفي من البلاد. ولم يرد هذا التعليل في الشعراء، فلعل البسط في المعاني لا في المقدار.

(١) مدين: مدينة قوم شعيب، وهي تجاه تبوك، على بحر القلزم، وبها البئر التي استقى منها موسى لغنم شعيب (مراصد الاطلاع ١٢٤٦/٣).

فكانت السورة شارحة لما أجمل في السورتين معاً، على الترتيب.

وبذلك عرف وجه الحكمة في تقديم (طس) على هذه، وتأخيرها عن الشعراء، فلله الحمد على ما ألهم.

« سورة العنكبوت »

أقول. ظهر لي في وجه اتصالها بما قبلها: أنه تعالى لما أخبر في أول السورة السابقة عن فرعون أنه: ﴿علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم﴾ «٤». افتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار وعذبوهم على الإيمان، بعذاب دون ما عذب به قوم فرعون بني إسرائيل، تسلية لهم، بما وقع لمن قبلهم، وحثاً لهم على الصبر، ولذلك قال هنا: ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم﴾ «٣». وهذه أيضاً من حكم تأخير القصص على (طس).

وأيضاً. فلما كان في خاتمة القصص الإشارة إلى هجرة النبي ﷺ[1]، وفي خاتمة هذه الإشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله: ﴿يا عبادي إن أرضي واسعة﴾ «٥٦» ناسب تتاليهما.

« سورة الروم »

أقول ظهر لي في اتصالها بما قبلها. أنها ختمت بقوله. ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ «٦٩». فافتتحت هذه بوعد من غلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر، وفرح المؤمنين بذلك، وأن الدولة لأهل الجهاد فيه، ولا يضرهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة[2].

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد﴾ (٨٥) الآية. والمعنى: لرادك الى مكة، كما في البخاري: ١٤٢/٦. أي: كما خرجت منها. وبه قال ابن عباس، ويحيى بن الجزار، وسعيد بن جبير والضحاك، واختاره ابن جرير (تفسير الطبري: ٨٠/٢٠).

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ الى قوله: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون =

هذا مع تآخيها بما قبلها في المطلع، فإن كلا منها افتتح بـ (الم) غير معقب بذكر القرآن، وهو خلاف القاعدة الخاصة بالمفتتح بالحروف المقطعة، فإنها كلها عقبت بذكر الكتاب أو وصفه، إلا هاتين السورتين وسورة القلم، لنكتة بينتها في «أسرار التنزيل»[1].

«سورة لقمان»

أقول: ظهر لي في اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة في الإفتتاح بـ [الم]. أن قوله تعالى هنا: ﴿هدىً ورحمة للمحسنين. الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم

= بنصر الله﴾ (٢ - ٥).

(١) ذكر المؤلف في المقدمة: أنه ألف هذا الكتاب الموسوعي، ولم نعثر عليه في قوائم المخطوطات، وأشار اليه في الاتقان: ٢٨١/١، ٣٦٩/٣

والذي نراه في سبب عدم افتتاح العنكبوت والروم بالكتاب أو وصفه والله اعلم: انه لما تكرر الحديث عن الكتاب عقب الحروف المقطعة وأنه من عند الله، وهدى للمتقين، وتنزيل من رب العالمين، كان لا بد من ابتلاء المصدقين به حتى ينعزل المنافقون عن المؤمنين ويظهر الصادق في ايمانه من الكاذب وهذا بمثابة الاختبار العملي لاستجابة الناس لامر الكتاب، ولا سيما وان حملة تشكيك أثارها الكفار ضد الايمان. ولذا قال تعالى في العنكبوت: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا اوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم﴾ الى أن قال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ -(١٠ - ١٢) الآية.

أما في الروم فقد عقبت الحروف المقطعة باختبار ودليل على صدق وعد الكتاب الذي صدق الكتاب بالاخبار عن المستقبل وما يجري فيه من وعد الروم بالنصر بعد الهزيمة. وهذا ابتلاء يميز الله به المؤمنين من المنافقين عند هذا الوعد وموقف الفريقين منه. ودليل على صدق الكتاب وأنه من الله حينما تحقق النصر بالفعل.

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون﴾ - ٦).

أما سورة القلم فكانت ثالثة السور نزولا بمكة، وكان الكفار قد ارجفوا بأن الرسول ﷺ مجنون، او به مس من الجن، فاقتضى الامر تسليته وتثبت فؤاده، وقدم هذه التسلية على الدفاع عن القرآن الذي جاء عقب ذلك في الآيات ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾ الى: ﴿اساطير الاولين﴾ ١٠ - ١٥.

بالآخرة هم يوقنون﴾ « ٣ ، ٤ » متعلق بقوله في آخر سورة الروم: ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث﴾ « ٥٦ » الآية. فهذا عين إيقانهم بالآخره، وهم المحسنون الموقنون بما ذكر.

وأيضاً ففي كلتا السورتين جملة من الأديان وبدء الخلق[1].

وذكر في الروم: ﴿في روضة يحبرون﴾ « ١٥ ». وقد فسر بالسماع[2]. وفي لقمان: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾. « ٦ ». وقد فسر بالغناء، وآلات الملاهي[3].

« سورة السجدة »

أقول. وجه اتصالها بما قبلها. أنها شرحت مفاتح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة لقمان.

فقوله هنا: ﴿ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ « ٥ ». شرح لقوله هناك: ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ « ٣٤ ». ولذلك عقد هنا بقوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾« ٦ ».

---

(١) ذكرت جملة الأديان في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ إلى قوله: ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ - (٩، ١٠) وقوله: ﴿من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً﴾ - (٣٢). وبدء الخلق في قوله: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ (٢٠) الآية، وما بعدها.
وذكرت جملة الأديان في لقمان في قوله: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ (٦) الآية. وقوله: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ (٢٠) وما بعدها. وبدء الخلق في قوله: ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾ (١٠) الآية. وقوله: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة﴾ (٢٨) الآية.

(٢) هو قول يحيى بن أبي كثير. انظر (تفسير ابن كثير ٣١٣/٦).

(٣) هو قول ابن مسعود سمعه منه أبو الصهباء البكري (تفسير الطبري ٣٩/٢١). وهو قول ابن عباس، وجابر، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومكحول، والحسن. وانظر (صحيح الترمذي: ٥٠٢/٤، ٥٠٣ بتحفة الأحوذي).

وقوله: ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾ «٢٧». شرح لقوله: ﴿وينزل الغيث﴾ «٣٢».

وقوله: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ «٧» الآيات. شرح لقوله: ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ «٣٤».

وقوله: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض﴾. و﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ «١٣». شرح لقوله: ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ «٣٤»

وقوله: ﴿أئذا ضللنا في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ «١١» شرح لقوله: ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ «٣٤». فلله الحمد على ما ألهم.

«سورة الأحزاب»

أقول: وجه اتصالها بما قبلها: تشابه مطلع هذه، ومقطع تلك، فإن تلك ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين، وانتظار عذابهم[١]، [ومطلع هذه الأمر بتقوى الله، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، فصارت كالتتمة لما ختمت به تلك، حتى كأنها سورة واحدة].

«سورة سبأ»

أقول: ظهر لي وجه اتصالها بما قبلها، وهو أن تلك لما ختمت بقوله: ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ «٣٧». افتتحت هذه بأن له ما في السموات وما في الأرض[٢] وهذا الوصف لائق بذلك الحكم، فإن الملك العام، والقدرة التامة، يقتضيان ذلك.

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿فأعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون﴾ (٣٠).

(٢) وذلك قوله: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الأخرة﴾ (١) الآية.

وخاتمة سورة الأحزاب: ﴿وكان اللّه غفوراً رحيماً﴾ «٧٣». وفاصلة الآية الثانية من مطلع سبأ: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ «٢».

« سورة فاطر »

أقول: مناسبة وضعها بعد سبأ. تآخيها في الافتتاح بالحمد، مع تناسبها في المقدار.

وقال بعضهم: افتتاح سورة فاطر بالحمد مناسب لختام ما قبلها، من قوله: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل﴾ «٥٤». كما قال: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ «٦. ٤٥». فهو نظير اتصال أول الأنعام بفصل القضاء المختتم به المائدة[1].

« سورة يس »

أقول. ظهر لي وجه اتصالها بما قبلها: أنه لما ذكر في سورة فاطر قوله: ﴿وجاءكم النذير﴾ «٣٧». وقوله: ﴿وأقسموا باللّه جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير﴾ «٤٢». والمراد به محمد ﷺ[2] وقد أعرضوا عنه وكذبوه، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته، وأنه على صراط مستقيم، لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم. وهذا وجه بين.

وفي فاطر: ﴿وسخر الشمس والقمر﴾ «١٣، ١٤» الآيتين. وفي يس. ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ «٣٨، ٣٩». وذلك أبسط وأوضح.

وفي فاطر: ﴿وترى الفلك فيه مواخر﴾ «١٢». وفي يس. ﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون. وخلقنا لهم من مثله ما يركبون. وإن نشأ

---

(١) آخر المائدة ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ (١١٩) الآية. وأول الأنعام: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ (١) الآية.

(٢) هو قول السدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. انظر تفسير ابن كثير ٥٤٢/٦.

نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون﴾ ـ « ٤١ ، ٤٣ ». فزاد القصة بسطاً.

« سورة الصافات »

أقول. هذه السورة بعد [يس] كالأعراف بعد الأنعام، وكالشعراء بعد الفرقان، في تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم[1]، كما أن تينك السورتين تفصيل لمثل ذلك كما تقدم.

« سورة ص »

أقول: هذه السورة بعد الصافات، كطس بعد الشعراء، وكطه والأنبياء بعد مريم، وكيوسف بعد هود، في كونها متممة لها بذكر من بقي من الأنبياء، ممن لم يذكروا فيها، فإنه سبحانه ذكر في الصافات. نوحا، وإبراهيم، والذبيخ، وموسى، وهارون ولوطاً، وإلياس، ويونس، وذكر هنا. داود، وسليمان، وأيوب، وأشار إلى بقية من ذكر، فهي بعدها أشبه شيء بالأنبياء وطس، بعد مريم والشعراء.

« سورة الزمر »

لايخفى وجه اتصال أولها بآخر [ص]، حيث قال في [ص]. ﴿ان هو إلا ذكر للعالمين﴾« ٨٧ » ثم قال هنا ﴿تنزيل الكتاب من الله﴾« ١ ». فكأنه قيل: هذا الذكر تنزيل. وهذا تلاؤم شديد، بحيث أنه لو أسقطت البسملة لالتأمت الآيتان كالآية الواحدة.

وقد ذكر الله تعالى في آخر [ص] قصة خلق آدم[2]، وذكر في صدر هذه

---

(١) وردت الإشارة إلى القرون المكذبة واهلاكهم في يس بقوله تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون انهم اليهم لايرجعون ﴾(١). وجاء ذلك مفصلاً في الصافات في قوله: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ (١٢) إلى آخر السورة.

(٢) خلق آدم في ص قوله: ﴿إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين﴾ إلى ﴿لأملأن جهنم=

قصة خلق زوجه، وخلق الناس كلهم منه، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقاً من بعد خلق، ثم ذكر أنهم ميتون، ثم ذكر وفاة النوم والموت، ثم ذكر القيامة، والحساب، والجزاء، والنار، والجنة [1]. وقال: ﴿وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ «٧٥».

فذكر أحوال الخلق، من المبدأ إلى المعاد، متصلاً بخلق آدم المذكور في السورة التي قبلها.

«سورة غافر»

أقول: وجه إيلاء الحواميم السبع [2] سورة الزمر: تآخي المطالع في الإفتتاح بتنزيل الكتاب. وفي مصحف أبي بن كعب: أول الزمر [حم] [3]، وذلك مناسبة جليلة.

ثم إن الحواميم ترتبت لاشتراكها في الإفتتاح بـ[حم]، وبذكر الكتاب بعد حم، وأنها مكية، بل ورد في الحديث أنها نزلت جملة [4].

وفيها شبه من ترتيب ذوات [الر] الست [5].

= منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ (٧١ - ٨٥).

(١) بدأ ذكر هذه الموضوعات في الزمر في قوله تعالى: ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾ (٦) الآية. وقوله: ﴿انك ميت وانهم ميتون﴾ (٣٠) وقوله: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ (٤٢) الآية. وقوله: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ (٧١) الآيات، إلى آخر السورة. ولذلك لو قدمت الزمر على ص، لاختل النسق القرآني الذي أحكمه الله تعالى.

(٢) الحواميم السبع هي: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والاحقاف.

(٣) الإتقان: ٢٢٢/١ نقلاً عن أبي أشتة في المصاحف وفي الأصل: أن الزمر أولها حم في مصحف ابن مسعود وأثبتنا ما في الإتقان. والبرهان للزركشي: ١٣٠/١.

(٤) لم نعثر على هذه الرواية ولم يذكرها السيوطي في الإتقان ولا الزركشي في البرهان، ولا مصادر السنة الستة، ولا مجمع الزوائد.

(٥) ذوات [الر] الست هي يونس، وهود، ويوسف، والرعد، (واولها المر). وابراهيم، والحجر.

فانظر ثانية الحواميم وهي فصلت، كيف شابهت ثانية ذوات [الر] هود في تغيير الأسلوب في وصف الكتاب. وأن في هود: ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾ « ٢ ». وفي فصلت: ﴿كتاب فصلت آياته﴾ « ٢ ». وفي سائر ذوات [الر] ﴿تلك آيات الكتاب﴾ [١]. وفي سائر الحواميم: ﴿تنزيل الكتاب﴾ أو ﴿والكتاب﴾ [٢].

وروينا عن جابر بن زيد وابن عباس في ترتيب نزول السور: أن الحواميم نزلت عقب الزمر، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها في المصحف: المؤمن، ثم السجدة، ثم الشورى، ثم الزخرف، ثم الدخان، ثم الجاثية، ثم الأحقاف. ولم يتخللها نزول غيرها [٣]. وتلك مناسبة جلية واضحة في وضعها هكذا.

ثم ظهر لي لطيفة أخرى، وهي: أنه في كل ربع من أرباع القرآن توالت سبع سور مفتتحة بالحروف المقطعة. فهذه السبع مصدرة بـ [حم]. وسبع في الربع الذي قبله ذوات [الر] الست متوالية، و[المص] الأعراف، فإنها متصلة بيونس على ما تقدمت الإشارة إليه. وافتتح أول القرآن بسورتين من ذلك، وأول النصف الثاني بسورتين [٤].

وقال الكرمان في « العجائب » [٥]: ترتيب الحواميم السبع لما بينها من

(١) ولكن في إبراهيم ﴿كتاب أنزلناه اليك﴾ (١).

(٢) ولكن في فصلت: ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾. وفي الشورى ﴿كذلك يوحى اليك وإلى الذين من قبلك الله﴾ (١).

(٣) الإتقان: ٩٧/١ نقلاً عن أبي بكر محمد بن الحارث بن أبيض في جزئه المشهور.

(٤) كان حق الكلام (بسبع سور) فنصف القرآن بالآيات في سورة الشعراء (الإتقان: ٢٤٣/١). وعليه يكون نصف القرآن مفتتحاً بالشعراء، وأولها (طسم، والنمل، طس) والقصص (طسم) والعنكبوت (الم) والروم (الم) ولقمان (الم) والسجدة (الم).
وإذا اعتبرنا النصف المعروف لنا فالسورتان هما (مريم، وطه).

(٥) هو كتاب « لباب التفسير وعجائب التأويل » لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (خط). ولم نعثر عليه مخطوطاً ولا مطبوعاً، انظر (معجم الأدباء ١٢٥/١٩). وقد ذكره الكرماني في (أسرار التكرار في القرآن ص ١٨).

التشاكل الذي خصت به، وهو: أن كل سورة منها استفتحت بالكتاب أو وصفه، مع تفاوت المقادير في الطول والقصر، وتشاكل الكلام في النظام. انتهى.

قلت: وانظر إلى مناسبة ترتيبها، فإن مطلع غافر مناسب لمطلع الزمر، ومطلع فصلت التي هي ثانية الحواميم مناسب لمطلع هود، التي هي ثانية ذوات [الر] ومطلع الزخرف مؤاخ لمطلع الدخان، وكذا مطلع الجاثية لمطلع الأحقاف[1].

« سورة القتال »

لايخفى وجه ارتباط أولها بقوله في آخر الأحقاف: ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾ « ٣٥ ». واتصاله وتلاحمه، بحيث أنه لو أسقطت البسملة منه، لكان متصلاً اتصالاً واحداً لاتنافر فيه، كالآية الواحدة، آخذاً بعضه بعنق بعض[2].

« سورة الفتح »

لايخفى وجه حسن وضعها هنا، لأن الفتـح بمعنى النصر، مرتب على القتال، وقد ورد في الحديث: أنها مبينة لما يفعل به وبالمؤمنين، بعد إبهامه في قوله تعالى في الأحقاف: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾[3] « ٩ ». فكانت متصلة بسورة الأحقاف من هذه الجملة.

---

(١) مطلع الزمر ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾. ومطلع غافر ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾. ومطلع هود ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت﴾. ومطلع فصلت ﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً﴾. وهكذا جميع المطالع التي ذكرها المؤلف.

(٢) أول القتال: ﴿الذين كفروا وصدواعن سبيل‌الله أضل أعمالهم﴾(١). وسورة القتال مع هذا متممة لموضوع سورة الأحقاف قبلها: فالأحقاف فيها الحديث عن اعراض الكافرين في مختلف العصور، وفيها دعوتهم إلى الإيمان بالتي هي أحسن، وقد استنفذت السورة وسائل الإقناع العقلي، وأثبتت عتو أهل الكفر وجحودهم، فكانت سورة القتال بما فيها من جهاد، وقواعد الحرب، وتشريعاته متفقة تماماً مع نسخ وسائل الدعوة السلمية بآية السيف.

(٣) هو قول ابن عباس. رواه عنه علي بن طلحة. ولذا قال عكرمة والحسن وقتادة: ان آية الأحقاف منسوخة بآية الفتح: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك﴾ الآية. قالوا: ولما نزلت =

« سورة الحجرات »

لايخفى تآخي هاتين السورتين [الفتح والحجرات] مع ما قبلها، لكونهما مدنيتين، ومشتملتين على أحكام. فتلك فيها قتال الكفار، وهذه فيها قتال البغاة[1]. وتلك ختمت بالذين آمنوا، وهذه افتتحت بالذين آمنوا[2]. وتلك تضمنت تشريفاً له ﷺ، خصوصاً مطلعها، وهذه أيضاً في مطلعها أنواع من التشريف له ﷺ[3].

« سورة الذاريات »

أقول: لما ختمت[ق] بذكر البعث، واشتملت على ذكر الجزاء، والجنة والنار، وغير ذلك من أحوال القيامة، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ما توعدون من ذلك لصادق، وإن الدين - وهو الجزاء - لواقع.

ونظير ذلك: افتتاح المرسلات بذلك، بعد ذكر الوعد والوعيد والجزاء في سورة الإنسان[4].

= قال رجل من المسلمين: فما هو فاعل بنا؟ فنزل: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات﴾ الآية: انظر تفسير ابن كثير: ٧/٢٦٠.

(١) قتال الكفار في الفتح معروف، لانها في فتح مكة، وقتال البغاة في الحجرات جاء في قوله تعالى: ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت أحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾(٩) الآية.

(٢) ختام الفتح: ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجراعظيا﴾(٢٩) وافتتاح الحجرات: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ (١) الآية.

(٣) تشريفه ﷺ في الفتح في قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك﴾(٢) الآية. وتشريفه في مطلع الحجرات: ﴿لا تقدموا بين يدي اللهورسوله﴾(١). ﴿ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﴾ (٣) الآية. ﴿ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون﴾ (٤).

(٤) الوعد والوعيد في الإنسان ﴿أنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً ﴾(٤) وما بعدها وأقسم على صحة ذلك في أول المرسلات ﴿ان ما توعدون لواقع ﴾(٧).

« سورة الطور »

أقول: وجه وضعها بعد الذاريات: تشابهها في المطلع والمقطع، فإن في مطلع كل منهما صفة حال المتقين بقوله: ﴿إن المتقين في جنات﴾« ١٥، ١٧ ». الآيات. وفي مقطع كل منهما صفة حال الكفار، بقوله في تلك: ﴿فويل للذين كفروا﴾ « ٦٠ ». وفي هذه: ﴿فالذين كفروا﴾ « ٤٢ »[١].

« سورة النجم »

أقول : وجه وضعها بعد الطور: أنها شديدة المناسبة لها، فإن الطور ختمت بقوله: ﴿وإدبار النجوم﴾ « ٤٩ ». وافتتحت هذه بقوله: ﴿والنجم إذا هوى﴾ « ١ ».

ووجه آخر: أن الطور ذكر فيها ذرية المؤمنين، وأنهم تبع لآبائهم[٢]، وهذه فيها ذكر ذرية اليهود[٣] في قوله: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأ كم من الأرض﴾ « ٣٢ »

ولما قال هناك في المؤمنين: ﴿ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾ « ٢١ ». أي: ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين، مع نفعهم بما عمل آباؤهم، قال هنا في صفة الكفار أو بني الكفار: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ « ٣٩ » خلاف ما ذكر في المؤمنين الصغار.

وهذا وجه بين بديع في المناسبة، من وادي التضاد.

---

(١) ومن المناسبة بين الطور والذاريات أنه تعالى ذكر تكذيب الكافرين ورد عليهم في إيجاز في الذاريات بقوله: ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ (٥٢) وما بعدها. ثم فصل ذلك في الطور من قوله: ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ (٢٩) إلى آخر السورة (٤٩).

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ (٢١).

(٣) بل فيها ذكر لذرية كل كافر حين استخرج الله ذرية آدم من صلبه وقسمهم فريقين: فريقاً للجنة، وفريقاً للسعير. انظر (تفسير ابن كثير: ٤٣٧/٧).

« سورة القمر »

أقول: لا يخفى ما في توالي هاتين السورتين من حسن التناسق في التسمية، لما بين النجم والقمر من الملابسة، ونظيره توالي الشمس والليل والضحى، وقبلها سورة الفجر.

ووجـه آخر، وهو : أن هذه السورة بعد النجم كالأعراف بعد الأنعام، وكالصافات بعد يس، في أنها تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم في قوله هناك: ﴿وأنه أهلك عاداً الأولى. وثمود فما أبقى. وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى﴾ « ٥٠ ـ ٥٣ »[١].

« سورة الرحمن »

أقول: لما قال سبحانه وتعالى في آخر القمر: ﴿بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ « ٤٦ ». ثم وصف حال المجرمين في سقر، وحال المتقين في جنات ونهر، فصل هذا الإجمال في هذه السورة أتم تفصيل، على الترتيب الوارد في الإجمال.

فبدأ بوصف مرارة الساعة، والإشارة إلى إدهائها، ثم وصف النار وأهلها [٢]، والجنة وأهلها [٣]، ولذا قال فيهم: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ « ٤٦ ». وذلك هو عين التقوى [٤]. ولم يقل: لمن آمن وأطاع، أو نحوه، لتتوافق الألفاظ في التفصيل والمفصل.

---

(١) جاء تفصيل ذلك على الترتيب، وزاد عليه، في سورة القمر، من قوله: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا﴾ ﴿فاخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ (٩ ـ ٤٢).

(٢) وصف النار وأهلها جاء في قوله في سورة الرحمن﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ إلى ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ـ (٣١ ـ ٤٤).

(٣) ووصف الجنة وأهلها جاء في قوله: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾(٤٦) إلى آخر السورة.

(٤) التقوى هي: خوف مقام الرب. وبذلك يتفق التفصيل هنا مع الإجمال في قوله: ﴿ان المتقين في جنات ونهر﴾ في سورة القمر.

وعرف بذلك أن هذه السورة بأسرها شرح لآخر السورة التي قبلها فلله. الحمد على ما ألهم وفهَّم.

« سورة الواقعة »

أقول: هذه السورة متآخية مع سورة الرحمن في أن كلا منها في وصف القيامة، والجنة والنار. وانظر إلى اتصال قوله هنا: ﴿إذا وقعت الواقعة﴾ « ١ » بقوله هناك: ﴿فإذا آنشقت السماء﴾ « ٣٧ ». ولهذا اقتصر في الرحمن على ذكر انشقاق السماء وفي الواقعة على ذكر رجّ الأرض[1]. فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة.

ولهذا عكس في الترتيب. فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك، كما أشرت إليه في سورة آل عمران مع سورة البقرة.

فافتتح الرحمن بذكر القرآن، ثم ذكر الشمس والقمر، ثم ذكر النبات، ثم خلق الإنسان، والجان من مارج من نار، ثم صفة القيامة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنة.

وابتدأ هذه بذكر القيامة ثم صفة الجنة، ثم صفة النار، ثم خلق الإنسان، ثم النبات، ثم الماء، ثم النار، ثم النجوم، ولم يذكرها في الرحمن، كما لم يذكر هنا الشمس والقمر، ثم ذكر القرآن.

فكانت هذه السورة كالمقابلة لتلك، وكردّ العجز على الصدر.

« سورة الحديد »

قال بعضهم: وجه اتصالها بالواقعة: أنها قدمت بذكر التسبيح، وتلك ختمت بالأمر به.

---

(١) وذلك في قوله: ﴿إذا رجت الأرض رجاً﴾(٤).

قلت: وتمامه: أن أول الحديد واقع موقع العلة للأمر به، وكأنه قيل: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ لأنه ﴿سبح لله ما في السموات والأرض﴾.

« سورة المجادلة »

أقول: لما كان في مطلع الحديد ذكر صفاته الجليلة، ومنها: الظاهر والباطن، وقال: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم﴾ « ٤ ». افتتح هذه بذكر أنه سمع قول المجادلة التي شكت إليهﷺ. ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها حين نزلت: [سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي ناحية البيت لا أعرف ما تقول] [١].

وذكر بعد ذلك قوله: ﴿ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم﴾ « ٧ ». وهو تفصيل لقوله: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ « ٤ ».

وبذلك تعرف الحكمة في الفصل بها بين الحديد والحشر، مع تآخيهما في الإفتتاح بـ[سبح].

« سورة الحشر »

آخر سورة المجادلة نزل فيمن قتل أقرباؤه من الصحابة يوم بدر [٢]. وأول الحشر نازل في غزوة بني النضير [٣]، وهي عقبها، وذلك نوع من المناسبة والربط.

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد: ١٤٤/٩ وابن ماجة في المقدمة: ٦٧/١ والإمام أحمد في المسند: ٤٦/٦. وابن جرير في التفسير: ٥/٢٨، ٦.

(٢) وهو قوله تعالى: ﴿أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه﴾ (٢٢).
وقيل هم: أبو عبيدة قتل أباه يوم بدر، وأبو بكر هم بقتل ولده عبد الرحمن، ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيداً، وعمر قتل قريباً له، وحمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عقبة وشيبة والوليد بن عتبة (طبقات ابن سعد: ٣٠٠/١/٣).

(٣) وذلك قوله: ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر﴾ (٢). =

وفي آخر تلك: ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ «٢١». وفي أول هذه: ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب﴾ «٢».

وفي آخر تلك ذكر من حاد الله ورسوله[1]، وفي أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله[2].

«سورة الممتحنة»

أقول: لما كانت سورة الحشر في المعاهَدين من أهل الكتاب، عقبت بهذه، لاشتمالها على ذكر المعاهَدين من المشركين، لأنها نزلت في صلح الحديبية[3].

ولما ذكر في الحشر موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً، ثم موالاة الذين من أهل الكتاب، افتتح هذه السورة بنهي المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء، لئلا يشابهوا المنافقين في ذلك، وكرر ذلك وبسطه، إلى أن ختم به، فكانت في غاية الإتصال، ولذلك فصل بها بين الحشر والصف، مع تآخيهما في الإفتتاح بـ [سبح].

«سورة الصف»

أقول: في سورة الممتحنة ذكر الجهاد في سبيل الله، وبسطه في هذه السورة أبلغ بسط.

= وأخرج البخاري في التفسير: ٦/١٨٣ ومسلم في التفسير: ٨/٢٤٥ عن ابن عباس أو اول الحشر أنزلت في بني النضير.

(١) وذلك قوله: ﴿لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ (٢٢) الآية.

(٢) وذلك قوله: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ (٤) الآية.

(٣) نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، لما أخبر المشركين بعزم النبي ﷺ على فتح مكة بعد أن نقض المشركون صلح الحديبية. (البخاري في التفسير: ٦/١٨٥، ١٨٦، والترمذي في التفسير: ٩/١٩٨ - ٢٠٢ بتحفة الأحوذي ومسند الإمام أحمد: ١/٧٩، ٨٠).

« سورة الجمعة »

أقول: ظهر لي في وجه اتصالها بما قبلها: أنه تعالى لما ذكر في سورة الصف حال موسى مع قومه، وأذاهم له، ناعياً عليهم ذلك (١)، ذكر في هذه السورة حال الرسول ﷺ، وفضل أمته، تشريفاً لهم، ليظهر فضل ما بين الأمتين، ولذا لم يعرض فيها لذكر اليهود.

وأيضاً لما ذكر هناك قول عيسى: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ « ٦ ». قال هنا: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾ « ٢ ». إشارة إلى أنه الذي بشر به عيسى. وهذا وجه حسن في الربط.

وأيضاً لما ختم تلك السورة بالأمر بالجهاد وسماه تجارة، ختم هذه بالأمر بالجمعة، وأخبر أنها خير من التجارة الدنيوية.

وأيضاً: فتلك سورة الصف، والصفوف تشرع في موضعين: القتال، والصلاة، فناسب تعقيب سورة صف القتال بسورة صلاة تستلزم الصف ضرورة، وهي الجمعة، لأن الجماعة شرط فيها، دون سائر الصلوات.

فهذه وجوه أربعة فتح الله بها.

« سورة المنافقون »

أقول: وجه اتصالها بما قبلها، أن سورة الجمعة ذكر فيها المؤمنون، وهذه ذكر فيها أضدادهم، وهم المنافقون. ولهذا أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المؤمنين، وبسورة المنافقين يفزع بها المنافقين (٢).

---

(١) وذلك في قوله: ﴿واذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني﴾(٥)الآية. وقال في الصف عن بني اسرائيل: انهم كذبوا عيسى، وكذبوا على الله، وأرادوا أن يطفئوا نور الله، في الآيات (٦ - ٩) ثم ذكر هنا تعليل هذا التكذيب بالغباء، وأبطل حجتهم في أنهم شعب الله المختار (٥ - ٧).

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٢/١٩١ عن أبي هريرة. وعزاه إلى الطبراني في الأوسط. =

وتمام المناسبة أن السورة التي بعدها فيها ذكر المشركين، والسورة التي قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى[1]. والتي قبلها وهي الممتحنة فيها ذكر المعاهدين من المشركين[2]. والتي قبلها وهي الحشر فيها ذكر المعاهدين من أهل الكتاب[3]، فإنها نزلت في بني النضير حين نبذوا العهد وقوتلوا.

وبذلك اتضحت المناسبة في ترتيب هذه السور الست هكذا، لاشتمالها على أصناف الأمم، وفي الفصل بين المسبحات بغيرها[4] لأن إيلاء سورة المعاهدين من أهل الكتاب بسورة المعاهدين من المشركين أنسب من غيره. وإيلاء سورة المؤمنين بسورة المنافقين أنسب من غيره.

فظهر بذلك أن الفصل بين المسبحات التي هي نظائر لحكمة دقيقة من لدن حكيم خبير، فلله الحمد على ما فهم وألهم.

هذا وقد ورد عن ابن عباس في ترتيب النزول: أن سورة التغابن نزلت عقب الجمعة[5]، وتقدم نزول سورة «المنافقون» فما فصل بينهما إلا الحكمة والله أعلم.

«سورة التغابن»

أقول: لما وقع في آخر سورة المنافقون: ﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن

= وقال: اسناده حسن. وفيه: (يقرع). بالقاف والراء المهملة. وأخرج مثله مختصراً عن أبي عبيدة الخولاني وعزاه للطبراني في الكبير.

(١) وذلك في قوله: ﴿ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل﴾ إلى ﴿وذلك على الله يسير﴾ - (٥ - ٧).

(٢) وذلك في الآيات (٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠).

(٣) وذلك في الآيتين (٨، ٩).

(٤) يعني الفصل بين الحشر، وأولها: سبح. وبين التغابن وأولها: يسبح، بالممتحنة والصف والجمعة والمنافقون.

(٥) الاتقان: ٩٧/١. وهو عن جابر بن زيد أيضاً. وجابر أحد علماء التابعين بالقرآن.

يأتي أحدكم الموت﴾ « ١٠ ». الآية. عقب بسورة التغابن، لأنه قيل في معناه: إن الإنسان يأتي يوم القيامة، وقد جمع مالاً، ولم يعمل فيه خيراً، فأخذه وارثه بسهولة، من غير مشقة في جمعه، فأنفقه في وجوه الخير، فالجامع محاسب معذب مع تعبه في جمعه، والوارث منعَّم مثاب، مع سهولة وصوله إليه. وذلك هو التغابن [١].

فارتباطه بآخر السورة المذكورة في غاية الوضوح. ولهذا قال هنا: ﴿وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ « ١٦ ».

وأيضاً ففي آخر تلك: ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر اللّه﴾ « ٩ ». وفي هذه: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ « ١٥ ». وهذه الجملة كالتعليل لتلك الجملة، ولذا ذكرت على ترتيبها [٢].

وقال بعضهم: لما كانت سورة المنافقون رأس ثلاث وستين سورة، أشير فيها إلى وفاة النبي ﷺ بقوله: ﴿ولن يؤخر اللّه نفساً إذا جاء أجلها﴾ « ١١ ». فإنه مات على رأس ثلاث وستين سنة، وعقبها بالتغابن، ليظهر التغابن في فقده ﷺ [٣].

« سورة الطلاق »

أقول: لما وقع في سورة التغابن: ﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم « ١٤ ». وكانت عداوة الأزواج تفضي إلى الطلاق، وعداوة الأولاد قد تفضي إلى القسوة، وترك الإنفاق عليهم، عقب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق، والإنفاق على ألأولاد والمطلقات بسببهم.

---

(١) تفسير الكواش: ٤/ورقة ١١٢ أ. خط الازهرية.

(٢) يعني الأموال أولاً، والأولاد ثانياً، وفي كلتا السورتين.

(٣) أورد السيوطي هذا القول في الإتقان: ٤/٣٠ غير معزو كما هو ههنا، كدليل على أنه ما من شيء ألا ويمكن استخراجه من القرآن.

« سورة التحريم »

أقول: هـذه السورة متآخية مع التي قبلها بالإفتتاح بخطاب النبي ﷺ، وتلك مشتملة على طلاق النساء، وهذه على تحريم الإيلاء. وبينهما من المناسبة مالا يخفى.

ولما كانت تلك في خصام نساء الأمة، ذكر في هذه خصومة نساء النبي ﷺ، إعظاماً لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة، فأفردن بسورة خاصة، ولهذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة: آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران[1].

« سورة تبارك »

أقول: ظهر لي بعد الجهد: أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتي نوح ولوط الكافرتين، وامرأة فرعون المؤمنة، افتتحت هذه السورة بقوله: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ « ٢ ». مراداً بهما الكفر والإيمان في أحد الأقوال[2]، للإشارة إلى أن الجميع بخلقه وقدرته، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط، ولم ينفعهما اتصالهما بهذين النبيين الكريمين، وآمنت امرأة فرعون، ولم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد، لما سبق في كل من القضاء والقدر.

ووجه آخر، وهو أن [تبارك] متصل بقوله في آخر الطلاق: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ « ١٢ ». فزاد ذلك بسطا في هذه الآية: ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ إلى قوله: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ « ٣ - ٥ » وإنما فصلت بسورة التحريم لأنها كالتتمة لسورة الطلاق.

---

(١) وهما في قوله تعالى: ﴿وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ (١١، ١٢). - (١٠١).

(٢) السلمي. حقائق التفسير ورقة ٢٠١ . خط.

« سورة ن »

أقول: لما ذكر سبحانه في آخر تبارك التهديد بتغوير الماء [1]، استظهر عليه في هذه السورة بإذهاب ثمر أصحاب البستان في ليلة يطاف عليه فيها، وهم نائمون، فأصبحوا لم يجدوا له أثراً، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق [2]. وإذا كان هذا في الثمار وهي أجرام كثيفة، فالماء الذي هو لطيف رقيق أقرب إلى الإذهاب، ولهذا قال: ﴿وهم نائمون. فأصبحت كالصريم﴾ « ١٩، ٢٠ ». وقال هناك: ﴿إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ « ٣٠ ». إشارة إلى أنه يسري عليه في ليلة كما سرى على الثمرة في ليلة.

« سورة الحاقة »

أقول: لما وقع في ﴿ن﴾ ذكر يوم القيامة مجملاً في قوله: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ « ٤٢ » الآية. شرح ذلك في هذه السورة بناء على هذا اليوم، وشأنه العظيم [3].

« سورة سأل »

أقول: هذه السورة كالتتمة لسورة الحاقة في بقية وصف يوم القيامة والنار [4].

وقال ابن عباس: إنها نزلت عقب سورة الحاقة [5]، وذلك أيضاً من وجوه

---

(١) ورد في قوله تعالى: ﴿قل أرأيتم ان اصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين﴾ (٣٠). وتغوير الماء: جفافه.

(٢) جاء هذا في سورة القلم بقوله تعالى: ﴿انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة﴾ الى ﴿انا كنا طاغين﴾ (١٧ - ٣١).

(٣) وذلك من أول السورة الى قوله: ﴿لا يأكله الا الخاطئون﴾ (٣٧).

(٤) وذلك من أول السورة الى قوله: ﴿وجمع فأوعى﴾ (١٨).

(٥) الاتقان: ٩٧/١.

المناسبة في الوضع.

« سورة نوح »

أقول: أكثر ما ظهر في وجه اتصالها بما قبلها بعد طول الفكر أنه سبحانه لما قال في ﴿سأل﴾: ﴿إنا لقادرون. على أن نبدل خيراً منهم﴾ « ٤١ ». عقبه بقصة قوم نوح، المشتملة على إبادتهم عن آخرهم، بحيث لم يبق منهم ديار وبدل خيراً منهم، فوقع الاستدلال لما ختم به تبارك.

هذا مع تآخي مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعد به الكافرين [1].

« سورة الجن »

أقول: قد فكرت مدة في وجه اتصالها بما قبلها، فلم يظهر لي سوى أنه قال في سورة نوح: ﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً. يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ « ١٠، ١١ ». وقال في هذه السورة: ﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا﴾ « ١٦ ». وهذا وجه بين في الارتباط [2].

« سورة المزمل »

أقول: لا يخفى وجه اتصال أولها: ﴿قم الليل﴾ « ٢ ». بقوله في آخر تلك:

---

(١) العذاب في مطلع سأل من أول السورة: سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع (١، ٢). وفي سورة نوح: ﴿ان انذر قومك من قبل ان يأتيهم عذاب اليم﴾ (١).

(٢) ومن المناسبة بين السورتين: أنه تعالى ذكر في نوح: ﴿رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا.﴾ (٢٢). ومضى في بيان كفرهم وضلالهم، الى أن دعا عليهم نوح، ثم بين في اول الجن: أنهم كالانس في الايمان والكفر، وأن لكفار الجن اتصالا بكفار الانس، فقال تعالى: ﴿وانه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا﴾ (٦). ﴿وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا﴾ (١١). ﴿وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون﴾ (١٤) الآية، فكانت هذه السورة لبيان الصلة بين الجن والانس، وبيان المقارنة بينهما.

﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ «١٩». وبقوله ﴿وأن المساجد لله﴾ «١٨»[(1)]

«سورة المدثر»

أقول هذه متآخية مع السورة التي قبلها في الافتتاح بخطاب النبي ﷺ، وصدر كليهما نازل في قصة واحدة.

وقد ذكر عن ابن عباس في ترتيب نزول السور: أن المدثر نزلت عقب المزمل. أخرجه ابن الضريس. وأخرجه غيره عن جابر بن زيد[(2)].

«سورة القيامة»

أقول: لما قال سبحانه في آخر المدثر. ﴿كلا بل لا يخافون الآخرة﴾ «٥٣» بعد ذكر الجنة والنار، وكان عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث، ذكر في هذه السورة الدليل على البعث، ووصف يوم القيامة، وأهواله، وأحواله، ثم ذكر ما قبل ذلك من مبدأ الخلق. فذكرت الأحوال في هذه السورة على عكس ما هي في الواقع.

«سورة الانسان»

أقول: وجه اتصالها بسورة القيامة في غاية الوضوح. فإنه تعالى ذكر في آخر

---

(١) ومن المناسبة انه تعالى لما قال في نهاية الجن: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا. الا من ارتضى من رسول﴾ (٢٦، ٢٧). افتتح المزمل بذكر بداية ارسال النبي ﷺ وما كلف به من شعائر العبودية والعبادة والدعوة. وذلك لأن النبي ﷺ بعث بين يدي الساعة كما جاء في السنة، وقد قال تعالى في الجن: ﴿وإن ادري أقريب أم بعيد ما توعدون﴾ (٢٥). فكأنه قال: هذه المزمل علم من اعلامها، فهو الذي ارتضاه الله ليظهره على غيبه، وانه بين يدي الساعة.

(٢) وفيها كذلك زيادة أعلام بالساعة وأهوالها في قوله: ﴿فاذا نقر في الناقور﴾ الى ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ (٨ - ٤٨).

تلك مبدأ خلق الإنسان من نطفة، ثم ذكر مثل ذلك في مطلع هذه السورة، مفتتحا بخلق آدم أبي البشر.

ولما ذكر هناك خلقه منها، قال هنا. ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾ «٣٩». ولما ذكر هناك خلقه منها، قال هنا. ﴿فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ «٢»، فعلق به غير ما علق بالأول، ثم رتب عليه هداية السبيل، وتقسيمه إلى شاكر وكفور، ثم أخذ في جزاء كل.

ووجه آخر، هو أنه لما وصف حال يوم القيامة في تلك السورة، ولم يصف فيها حال النار والجنة، بل ذكرهما على سبيل الإجمال، فصلها في هذه السورة، وأطنب في وصف الجنة[1]، وذلك كله شرح لقوله تعالى هناك ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ - «٢٢». وقوله هنا. ﴿إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً﴾ «٤». شرح لقوله هناك. ﴿تظن أن يُفعل بها فاقره﴾ «٢٥».

وقد ذكر هناك. ﴿كلا بل يحبون العاجلة. ويذرون الآخرة﴾ «٢٠، ٢١» وذكر هنا في هذه السورة. ﴿إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا﴾ «٢٧». وهذا من وجوه المناسبة[2].

« سورة المرسلات »

أقول: وجه اتصالها بما قبلها. أنه تعالى لما أخبر في خاتمتها. أنه. ﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾ «٣١»، افتتح هذه بالقسم على أن

---

(١) تفصيل احوال المؤمنين في الجنة مفصل هنا من قوله تعالى: ﴿ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾ الى: ﴿ان هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا﴾(٥ - ٢٢).

(٢) ومن وجوه المناسبة بين سورة الانسان وسورة القيامة: انه تعالى فصل في القيامة أحوال الكافرين عند الموت وما يعانون من قهر وندم في قوله: ﴿كلا اذا بلغت التراقي. وقيل من راق﴾ الى: ﴿ثم اولى لك فأولى﴾ -(٢٦ - ٣٥) وفي هذه السورة فصل احوال المؤمنين في حياتهم، والتي استوجبوا بها النعيم الموصوف في السورة. وذلك في قوله: ﴿يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا﴾ الى ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا﴾ ١١٧.

ما يوعدون واقع، فكان ذلك تحقيقاً لما وعد به هناك المؤمنين، وأوعد الظالمين.

ثم ذكر وقته وأشراطه بقوله: ﴿فإذا النجوم طمست﴾ «٨» إلى آخره.

ويحتمل أن تكون الإشارة بما يوعدون إلى جميع ما تضمنته السورة من وعيد للكافرين، ووعد للأبرار [١].

«سورة عم»

أقول: وجه اتصالها بما قبلها: تناسبها معها في الجمل. ففي تلك: ﴿ألم نهلك الأولين. ثم نتبعهم الآخرين﴾ «١٧، ١٨». ﴿ألم نخلقكم من ماء مهين﴾ «٢٠» ﴿ألم تجعل الأرض كفاتا﴾ «٢٥». إلى آخره. وفي عم: ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ «٦» إلى آخره. فكذلك نظير تناسب جمل: ألم نشرح، والضحى، بقوله في الضحى: ﴿ألم يجدك يتيما فآوى﴾ «٦» إلى آخره. وقوله: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ «١». مع اشتراك هذه السورة والأربع قبلها في الاشتمال على وصف الجنة والنار، ما عدا المدثر في الاشتمال على وصف يوم القيامة وأهواله، وعلى ذكر بدء الخلق، وإقامة الدليل على البعث.

وأيضاً في سورة المرسلات: ﴿لأي يوم أجلت، ليوم الفصل، وما أدراك ما يوم الفصل﴾ «١٢ - ١٤». وفي هذه السورة: ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتا. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ «١٧، ١٨» إلى آخره. فكأن هذه السورة شرح يوم الفصل المجمل ذكره في السورة التي قبلها [٢].

---

(١) وهناك مناسبة بين القيامة والانسان والمرسلات من ناحية خلق الانسان. ففي القيامة قال: ﴿ألم يك نطفة من منى يمنى. ثم كان علقة فخلق فسوى. فجعل منه الزوجين الذكر والانثى﴾ ٣٧ - ٣٩) فذكر بداية الخلق. وفي الانسان تدرج الى الحديث عن اتمام بناء الانسان حتى صار شديد الاسر ﴿نحن خلقناهم وشددنا اسرهم﴾ (٢٨) الآية ولما كانت قوة الانسان مظنة كبريائه، ذكره في المرسلات بمهانة أصله: ﴿الم نخلقكم من ماء مهين﴾ (٢٠).

ومعاني السور الثلاث تدور حول الأصول، ولذلك قال في المرسلات: ﴿فإن كان لكم كيد فكيدون﴾ (٣٦). اعلاما بقهره للعباد.

(٢) لم يذكر المؤلف سورة النازعات، ومناسبتها لما قبلها، ونرى والله أعلم: أنه طال وصف يوم= :

« سورة عبس »

أقول: وجه وضعها عقب النازعات مع تآخيهما في المقطع، لقوله هناك: ﴿فإذا جاءت الطامة﴾ « ٣٤ ». وقوله هنا: ﴿فإذا جاءت الصاخة﴾ « ٣٣ ». وهما من أسماء يوم القيامة (١).

[سورة التكوير]

أقول: لما ذكر في عبس: ﴿فإذا جاءت الصاخة. يوم يفر المرء من أخيه﴾ « ٣٤، ٣٥ » الآيات. ذكر يوم القيامة كأنه رأى عين. وفي الحديث: [من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ: ﴿إذا الشمس كورت﴾. و ﴿إذا السماء انفطرت﴾. و ﴿إذا السماء انشقت﴾ (٢)].

« سورة الانفطار »

أقول: قد عرف مما ذكرت وجه وضعها هنا، مع زيادة تآخيهما في المقطع (٣).

= القيامة في النبأ، ثم ذكر في النازعات حجة من انكرها، ورد عليها، فقال: ﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذاكنا عظاما نخرة﴾ (١٠ - ١١). وذكر ندامتهم على تفريطهم بقوله: ﴿قلوا تلك اذن كرة خاسرة﴾ (١٢). ثم اكد قدرته على احياء الموتى، واقام الدليل عليها في بقية السورة.

(١) لم يذكر المؤلف سر الترتيب ونقول: ان الطامة من الطم، من طمث البئر، اذا كبستها، وسميت به القيامة لانها تطم كل شيء. والصاخة من الصخ، وهو الصوت الشديد، وسميت به لأنه بشدة صوتها يجثو لها الناس. وخصت النازعات بالطم لانه قبل الصخ، فكانت عبس لاحقة للنازعات بطبعها. انظر (اسرار التكرار في القرآن ٢٠١).

(٢) أخرجه الامام أحمد في المسند ٢/ ٧٢. والترمذي في التفسير ٩/ ٢٥٢، ٢٥٣ بتحفة الاحوذي.

(٣) مقطع التكوير: ﴿وما تشاءون الا ان يشاء الله رب العالمين﴾ (٢٩) ومقطع الانفطار: ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله﴾ (١٩) وهما بمعنى.

« سورة المطففين »

أقول: الفصل بهذه السورة بين الانفطار والانشقاق التي هي نظيرتها من خمسة أوجه: الافتتاح بـ ﴿إذا السماء﴾، والتخلص بـ ﴿يا أيها الإنسان﴾، وشرح حال يوم القيامة، ولهذا ضمت بالحديث السابق، والتناسب في المقدار، وكونها مكية.

وهذه السورة مدنية، ومفتتحها ومخلصها غير مالها، لنكتة ألهمنيها الله. وذلك أن السور الأربع لما كانت في صفة حال يوم القيامة، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه.

فغالب ما وقع في التكوير، وجميع ما وقع في الانفطار، وقع في صدر يوم القيامة، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل، ومقاساة العرق، والأهوال، فذكره في هذه السورة بقوله: ﴿يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾ « ٦ ». ولهذا ورد في الحديث: [يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه] (١).

ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى، فتنشر الكتب، فأخذ باليمن، وأخذ بالشمال، وأخذ من وراء الظهر، ثم بعد ذلك يقع الحساب.

هكذا وردت بهذا الترتيب الأحاديث، فناسب تأخير سورة الانشقاق التي فيها إتيان الكتب والحساب(٢)، عن السورة التي قبلها، والتي فيها ذكر الموقف عن التي فيها مبادىء يوم القيامة.

ووجه آخر، وهو: أنه جل جلاله لما قال في الانفطار: ﴿وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين﴾ - « ١١، ١٢ » . وذلك في الدنيا، ذكر في هذه السورة حال ما يكتبه الحافظان، وهو: كتاب مرقوم جعل في عليين، أو في

---

(١) اخرجه البخاري في التفسير ٢٠٧/٦ عن ابن عمر. واحمد في المسند مع اختلاف في اللفظ ١٣/٢، ١٩، وعلى المطابقة ٣١/٢.

(٢) وذلك في قوله: ﴿فأما من اوتي كتابه بيمينه﴾ الى: ﴿ويصلى سعيرا﴾ (٧ - ١٢).

سجين، وذلك أيضاً في الدنيا، لكنه عقَّب بالكتابة، إما في يومه، أو بعد الموت في البرزخ كما في الآثار. فهذه حالة ثانية في الكتاب ذكرت في السورة الثانية.

وله حالة ثالثة متأخرة فيها، وهي أخذ صاحبه باليمين أو غيرها، وذلك يوم القيامة، فناسب تأخير السورة التي فيها ذلك، عن السورة التي فيها الحالة الثانية، وهي الانشقاق، فلله الحمد على ما من بالفهم لأسرار كتابه.

ثم رأيت الإمام فخر الدين قال في سورة المطففين أيضاً: اتصال أولها بآخر ما قبلها ظاهر، لأنه تعالى بين هناك أن يوم القيامة من صفته: ﴿لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾. وذلك يقتضي تهديداً عظيماً للعصاة، فلهذا اتبعه بقوله: ﴿ويل للمطففين﴾ الآيات.

«سورة الإنشقاق»

قد استوفي الكلام فيها في سورة المطففين.

«سورة البروج والطارق»

أقول: هما متآخيتان فقرنتا، وقدمت الأولى لطولها، وذكرا بعد الإنشقاق للمؤاخاة في الإفتتاح بذكر السماء، ولهذا ورد في الحديث ذكر السموات مراداً بها السور الأربع[1]، كما قيل: المسبحات.

«سورة الأعلى»

أقول: في سورة الطارق ذكر خلق [النبات] والإنسان في قوله: ﴿والأرض ذات الصدع﴾ «١٢» [وقوله: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ إلى ﴿إنه على رجعه لقادر﴾ «٦ - ٨»]. وذكره في هذه السورة في قوله: ﴿خلق فسوى﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٢٧/٢ عن ابي هريرة أن النبي ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء. يعني: السور الاربع المفتتحة بذكر السماء.

« ٢ ». وقوله في النبات: ﴿والذي أخرج المرعى. فجعله غثاء أحوى﴾ « ٣، ٤ ». وقصة النبات في هذه السورة أبسط، كما أن قصة الإنسان هناك أبسط. نعم، ما في هذه السورة أعم، من جهة شموله للإنسان وسائر المخلوقات.

« سورة الغاشية »

أقول: لما أشار سبحانه في سورة الأعلى بقوله: ﴿سيذكر من يخشى. ويتجنبها الأشقى. الذي يصلى النار الكبرى﴾ إلى قوله: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ « ١٠ - ١٧ ». إلى المؤمن والكافر، والنار والجنة إجمالاً، فصل ذلك في هذه السورة. فبسط صفة النار والجنة مستندة إلى أهل كل منهما، على نمط ما هنالك، ولذا قال [هنا]: ﴿عاملة ناصبة﴾ « ٣ ». في مقابل: ﴿الأشقى﴾ « ١٠ » [هناك] وقال [هنا] ﴿تصلى ناراً حامية﴾ « ٤ » إلى: ﴿لايسمن ولا يغني من جوع﴾ « ٧ ». في مقابلة: ﴿يصلى النار الكبرى﴾ « ١٢ » [هناك]. ولما قال [هناك] في الآخرة: ﴿خير وأبقى﴾ « ١٦ ». بسط [هنا] صفة الجنة أكثر من صفة النار، تحقيقاً لمعنى الخيرية.

« سورة الفجر »

أقول: لم يظهر لي من وجه ارتباطها سوى أن أولها كالإقسام على صحة ما ختم به السورة التي قبلها، من قوله جل جلاله: ﴿إن إلينا إيابهم. ثم إن علينا حسابهم﴾« ٢٥ - ٢٦ ». وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد. كما أن أول الذاريات قسم على تحقيق ما في [ق]، وأول المرسلات قسم على تحقيق مافي [عم].

هذا مع أن جملة ﴿ألم تر كيف فعل ربك﴾ « ٦ » هنا، مشابهة لجملة ﴿أفلا ينظرون﴾ « ١٧ » هناك [1].

---

(١) بل هناك وجوه ارتباط أوضح مما ذكر المؤلف. وذلك: أنه تعالى ذكر في الغاشية صفة النار والجنة مفصلة على ترتيب ما ذكر في سورة الاعلى. ثم زاد الأمر تفصيلا في الفجر بذكر أسباب =

« سورة البلد »

أقول: وجه اتصالها بما قبلها. أنه لما ذم فيها من أحب المال، وأكثر التراث، ولم يحض على طعام المسكين، ذكر في هذه السورة الخصال التي تطلب من صاحب المال، من فك الرقبة، والإطعام في يوم ذي مسغبة[1].

« سورة الشمس والليل والضحى »

أقول: هذه الثلاثة حسنة التناسق جداً، لما في مطالعها من المناسبة، لما بين الشمس والليل والضحى من الملابسة، ومنها سورة الفجر، لكن فصلت بسورة البلد لنكتة أهم، كما فصل بين الإنفطار والإنشقاق وبين المسبحات، لأن مراعاة التناسب بالأسماء والفواتح وترتيب النزول، إنما يكون حيث لا يعارضها ما هو أقوى وآكد في المناسبة.

ثم إن سورة الشمس ظاهرة الإتصال بسورة البلد، فإنه سبحانه لما ختمها بذكر أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، أراد الفريقين في سورة الشمس على سبيل الفذلكة. فقوله [في الشمس]. ﴿قد أفلح من زكاها﴾ « ٩ ». هم أصحاب الميمنة في سورة البلد، وقوله: ﴿وقد خاب من دساها﴾ « ١٠ » [في

= عذاب أهل النار، فضرب لذلك مثلاً بقوم عاد، وقوم فرعون، في قوله: ﴿ألم تركيف فعل ربك بعاد﴾ إلى ﴿أن ربك لبالمرصاد﴾(٦ - ١٤)، ثم ذكر بعض عناصر طغيانهم في قوله: ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾ (١٧) وما بعدها: فكانت هذه السورة بمثابة اقامة الحجة عليهم. وكذلك جاء في الغاشية: ﴿انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ (٢١ - ٢٢). ثم ذكر في الفجر مادة تذكير من كان قبلهم من الكفار، ثم أخذ الله اياهم في الدنيا، وانه سيعذبهم في الآخرة، وأن الندم لن ينفعهم شيئاً، فقال: ﴿يومئذ يتذكر، الإنسان وانى له الذكرى. يقول يا ليتني قدمت لحياتي﴾ (٢٣، ٢٤).

(١) ومن التناسب أيضاً بين هذه السور وسابقتها: أنه تعالى لما ذكر في تلك ابتلاء الإنسان بضيق الرزق بسبب عدم اطعام المسكين، وعدم اكرام اليتيم، ونعى عليه حب المال، ذكر في هذه ندمه يوم القيامة، وتذكره حبس المال، وذلك حين يقول: ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾ (٢٤).

الشمس]، هم أصحاب المشأمة في سورة البلد، فكانت هذه السورة فذلكة تفصيل تلك السورة: ولهذا قال الإمام: المقصود من هذه السورة. الترغيب في الطاعات، والتحذير من المعاصي.

ونزيد في سورة الليل: أنها تفصيل إجمال سورة الشمس، فقوله. ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ «٥» وما بعدها، تفصيل ﴿قد أفلح من زكاها﴾. وقوله: ﴿وأما من بخل واستغنى﴾ «٨» الآيات، تفصيل قوله. ﴿وقد خاب من دساها﴾.

ونزيد في سورة الضحى: أنها متصلة بسورة الليل من وجهين. فإن فيها. ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ «١٣». وفي الضحى: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ «٤». وفي الليل. ﴿ولسوف يرضى﴾ «٢١». وفي الضحى. ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ «٥».

ولما كانت سورة الضحى نازلة في شأنه ﷺ، افتتحت بالضحى، الذي هو نور، ولما كانت سورة الليل سورة أبي بكر، يعني: ما عدا قصة البخيل[1]، وكانت سورة الضحى سورة محمد، عقب بها، ولم يجعل بينهما واسطة، ليعلم ألا واسطة بين محمد وأبي بكر.

«سورة ألم نشرح»

أقول: هي شديدة الإتصال بسورة الضحى، لتناسبهما في الجمل. ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما[2]. قال الإمام: والذي دعاهم إلى ذلك هو: أن قوله: ﴿ألم نشرح﴾ كالعطف على: ﴿ألم يجدك يتيماً

---

(١) الذي نزل في أبي بكر من هذه السورة قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى﴾ إلى ﴿فسنيسره لليسرى﴾. أخرج ابن جرير أنه كان يعتق على الإسلام بمكة عجائز ونساء إذا أسلمن فلامه أبوه، فنزلت (تفسير ابن جرير الطبري: ١٤٢/٣٠).

(٢) نقل هذا القول فخر الدين الرازي في تفسيره عن طاووس وعمر بن عبد العزيز (تفسير سورة الضحى).

فآوى﴾ « ٦ » [في الضحى] [١].

قلت: وفي حديث الإسراء أن الله تعالى قال: [يا محمد، ألم أجدك يتيماً فآويت، وضالاً فهديت، وعائلاً فأغنيت، وشرحت لك صدرك، وحططت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت] الحديث. أخرجه ابن أبي حاتم [٢]. وفي هذا أوفى دليل على اتصال السورتين معنى.

« سورة التين »

أقول: لما تقدم في سورة الشمس: ﴿ونفس وما سواها﴾ « ٣ ». فصل في هذه السورة بقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين﴾ « ٤، ٥ » إلى آخره.

وأخرت هذه السورة لتقدم ما هو أنسب بالتقديم من السور الثلاث [٣]، واتصالها بسورة البلد لقوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾ « ٣ ». وأخرت لتقدم ما هو أولى بالمناسبة مع سورة الفجر [٤].

لطيفة:

نقل الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندري في « لطائف المنن » عن الشيخ أبي العباس المرسي، قال قرأت مرة: ﴿والتين والزيتون﴾ إلى أن انتهيت إلى

(١) هي كالعطف في المعنى لا في اللفظ. ثم ان هذه السورة شرح لسابقتها، فشرح الصدر هناك، مفصل هنا ببيان عناصره وأسبابه التي هي: الإيواء بعد اليتم، والهداية بعد الضلال، والغنى بعد العيلة. فتلك كلها من عوامل انشراح الصدر للإيمان، لاسيا وقد جاءت بعد وعد بالعطاء حتى يرضى الرسول.

(٢) الحديث ذكره ابن كثير في تفسيره عن ابن أبي حاتم: ٤٥٢/٨.

(٣) يعني (الليل، والضحى، وألم نشرح). فان مناسباتها متوالية هكذا أهم من تقديم التين بعد الشمس.

(٤) يعني أن اتصال سورة الشمس بالبلد، واتصال البلد بالفجر، أولى من اتصال التين بالبلد لمجرد ذكر (البلد في كليهما).

قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين﴾ « ٤ ، ٥ » ففكرت في معنى هذه الآية، فألهمني الله أن معناها: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم روحاً وعقلاً، ثم رددناه أسفل سافلين نفساً وهوى[١].

قلت: فظهر من هذه المناسبة وضعها بعد﴿ألم نشرح﴾. فإن تلك أخبر فيها عن شرح صدر النبي ﷺ، وذلك يستدعي كمال عقله وروحه، فكلاهما في القلب الذي محله الصدر، وعن خلاصه من الوزر الذي ينشأ من النفس والهوى، وهو معصوم منهما، وعن رفع الذكر، حيث نزه مقامه عن كل مُوهِم.

فلما كانت هذه السورة في هذا العلم الفرد من الإنسان، أعقبها بسورة مشتملة على بقية الأناسي، وذكر ماخامرهم في متابعة النفس والهوى.

« سورة العلق »

أقول: لما تقدم في سورة التين بيان خلق الإنسان في أحسن تقويم، بين هنا أنه تعالى: ﴿خلق الإنسان من علق﴾ « ٢ ». وذلك ظاهر الإتصال، فالأول بيان العلة الصورية، وهذا بيان العلة المادية[٢].

« سورة القدر »

قال الخطابي: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ على القرآن، ووضعوا سورة القدر عقب العلق، استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله: ﴿ إنا

---

(١) لطائف المنن ص ١١٨. المطبعة الفخرية ١٩٧٢ القاهرة.

(٢) أقول: ومن المناسبة بين التين والعلق.

(أ) أنه تعالى لما قال في آخر التين: ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾..بين في أول العلق أنه تعالى مصدر علم العباد بحكمته. فبين أنه ﴿علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾. وصدر ذلك بالامر بالقراءة، واستفتاحها باسمه دائماً، لتكون للإنسان عوناً على كمال العلم بحكمة أحكم الحاكمين.

(ب) لما ذكر في التين خلق الانسان في أحسن تقويم، ورده إلى أسفل سافلين. بين في العلق =

أنزلناه في ليلة القدر﴾ « ١ ». الإشارة إلى قوله. [اقرأ][1].

قال القاضي أبو بكر بن العربي. وهذا بديع جداً [2].

« سورة لم يكن »

أقول: هذه السورة واقعة موقع العلة لما قبلها، كأنه لما قال سبحانه: ﴿إنا أنزلناه﴾« ١ ». قيل: لم أنزل؟ فقيل. لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم، حتى تأتيهم البينة، وهو رسول من اللّه يتلوصحفاً مطهرة. وذلك هو المنزل.

وقد ثبتت الأحاديث بأنه كان في هذه السورة قرآن نُسخ رسمه وهو: إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ولو أن لإبن آدم وادياً لابتغى إليه الثاني، ولو أن له الثاني لابتغى إليه الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب اللّه على من تاب [3].

وبذلك تشتد المناسبة بين هذه السورة وبين ما قبلها، حيث ذكر هناك إنزال القرآن، وهنا إنزال المال، وتكون السورتان تعليلاً لما تضمنته سورة أقرأ، لأن

= تفصيل الحالين وأسبابها من أول قوله: ﴿كلا ان الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ (٦، ٧). إلى ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ (١٤).

(١) الخطابي هو: أحمد بن محمد بن ابراهيم أبو سليمان. له شرح سنن أبي داود وبيان اعجاز القرآن. توفي سنه ٣٨٨ (وفيات الاعيان: ١/١٦٦). والنقل من (البرهان لابي جعفر بن الزبير) كما قال السيوطي (الاتقان: ٣/٣٨٣).

(٢) أقول: وهناك مناسبة أخرى خفية. هي أنه تعالى لما ختم العلق بالأمر بالسجود والاقتراب من الله، وكان المقصود من الاقتراب: التعرض للرحمة الفائضة من الله على المصلي، والصلاة لا تكون إلا بقرآن، ذكر في أول هذه السورة أن القرآن رحمة في ذاته، ورحمة في الزمان الذي نزل فيه وهو ليلة القدر التي تنزل الملائكة فيها بالروح والسلام على الكون.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد: ٧/١٤٠ عن أبي واقد الليثي. قال: قال لنا رسول الله ﷺ: ان الله عز وجل قال: انا أنزلنا المال... الحديث، وعزاه الى احمد والطبراني وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

أولها ذكر العلم، وفي أثنائها ذكر المال. فكأنه قيل: إنا لم ننزل المال للطغيان والاستطالة والفخر، بل ليستعان به على تقوانا، وإقامة الصلاة، وإتياء الزكاة [1].

«سورة الزلزلة»

أقول: لما ذكر في آخر ﴿لم يكن﴾أن جزاء الكافرين جهنم، وجزاء المؤمنين جنات، فكأنه قيل: متى يكون ذلك؟ فقيل: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ «١». أي [حين] تكون زلزلة الأرض، إلى آخره.

هكذا ظهر لي، ثم لما راجعت تفسير الإمام الرازي، ورأيته ذكر نحوه حمدت الله كثيراً. وعبارته: ذكروا في مناسبة هذه السورة لما قبلها وجوها منها: أنه تعالى لما قال: ﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن﴾«٨». فكأن المكلف قال: ومتى يكون ذلك يا رب؟ فقال: ﴿إذا زلزلت الأرض﴾.

ومنها: أنه لما ذكر فيها وعيد الكافرين، ووعد المؤمنين أراد أن يزيد في وعيد الكافرين فقال: ﴿إذا زلزلت الأرض﴾. ونظيره: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾. ثم ذكر ما للطائفتين فقال: ﴿فأما الذين اسودت وجوههم﴾ إلى آخره. ثم رجع بينهما هنا في آخر السورة بذكر الذي يعمل الخير والشر. انتهى.

«سورة العاديات»

أقول: لا يخفى ما بين قوله في الزلزلة: ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾«٢» وقوله في هذه السورة: ﴿إذا بعثر ما في القبور﴾«٩». من المناسبة والعلاقة [2]

---

(١) العلم في قوله تعالى: ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾. والمال في قوله: ﴿ان الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾.

(٢) أقول: وهناك مناسبة أخرى. هي: بيان الأصل الذي يضل به الإنسان أو يهتدي. فلما ذكر في=

«سورة القارعة»

قال الإمام: لما ختم الله سبحانه السورة السابقة بقوله: ﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ «١١». فكأنه قيل: وما ذاك؟ فقال: هي القارعة. قال: وتقديره: ستأتيك القارعة على ما أخبرت عنه بقولي: ﴿إذا بعثر مافي القبور﴾ «٩».

«سورة التكاثر»

أقول: هذه السورة واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها، كأنه لما قال هناك: ﴿فأمه هاوية﴾«٩». قيل: لم ذلك؟ فقال: لأنكم ﴿ألهاكم التكاثر﴾ «١». فاشتغلتم بدنياكم، وملأتم موازينكم بالحطام، فخفت موازينكم بالآثام، ولهذا عقبها بسورة العصر، المشتملة على أن الإنسان في خُسر، بيان لخسارة تجارة الدنيا، وربح تجارة الآخرة، ولهذا عقبها بسورة الهمزة، المتوعَّد فيها مَن جمع مالاً وعدّده، يحسب أن ماله أخلده. فانظر إلى تلاحم هذه السور الأربع، وحسن اتساقها [١].

«سورة الفيل»

ظهر لي في وجه اتصالها بعد الفِكرة: أنه تعالى لما ذكر حال الهمزة اللُمزة، الذي جمع مالاً وعدّه، وتعزز بماله وتقوّى، عقب ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل، الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر أموالاً وعتُوا، وقد جعل كيدهم في تضليل، وأهلكهم بأصغر الطير وأضعفه، وجعلهم كعصف مأكول، ولم يغن

= آخر الزلزلة جزاء الإنسان على الخير والشر. بين هنا ان الإنسان بطبعه يحب الخير، وحبه للخير أما للدنيا وهو الشر، واما للأخرة وهو حقيقة الخير. فهذا الحب هو الذي يوجه الاعمال. ثم ذكر الإنسان بيوم يكشف فيه عما في القلوب من نوايا خفية: ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور. وحصل ما في الصدور﴾ إلى آخر السورة. وقد زاد الأمر تفصيلاً في السور التالية.

(١) ومن المناسبة كذلك: التصريح هنا بوزن الأعمال التي أجلها في الزلزلة وبين أصلها في العاديات.

عنهم مالهم ولا عزهم ولا شوكتهم، ولا فيلهم شيئاً.

فمن كان قصارى تعزُّزه وتقوِّيه بالمال، وهَمز الناس بلسانه، أقرب إلى الهلاك، وأدنى إلى الذلة والمهانة.

« سورة قريش »

هي شديدة الإتصال بما قبلها، لتعلق الجار والمجرور في أولها بالفعل في آخر تلك. ولهذا كانتا في مصحف أبي سورة واحدة(١).

« سورة الماعون »

أقول: لما ذكر تعالى في سورة قريش: ﴿الذي أطعمهم من جوع﴾ « ٤ ». ذكر هنا ذم من لم يُحض على طعام المسكين.

ولما قال هناك: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ « ٣ ». ذكر هنا من سها عن صلاته(٢).

« سورة الكوثر »

قال الإمام فخر الدين: هي كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة وصف الله

---

(١) نقله السيوطي عن السخاوي في كتاب جمال القراء عن جعفر الصادق، وأبي نهيك. وقال: ويرداه ما أخرجه الحاكم والطبراني من حديث أم هانيء أن رسول الله ﷺ قال: فضل الله قريشاً بسبع... وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها معهم غيرهم: لإيلاف قريش. ومع ذلك فصلة قريش بالفيل قائمة. فكأن مافعل الله بأصحاب الفيل كن لإيلاف قريش، ولتأمين طريق تجارتهم في رحلتي الشتاء والصيف. وقد كان من اهداف أبرهة السياسية حرمان قريش من تجارتهم هذه.

(٢) أقول: ان السورة بكاملها تسير مع الخط الذي يبدأ من سورة الزلزلة كما قلنا. فهي ترشد إلى الطريق السليم لاستعمال المال، وبذله في عون اليتامى، واطعام المساكين، وذلك عن طريق التحذير من اهمال هذا الطريق، وتسمية مانع العون مكذباً بالدين.

سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة. وذكر في هذه السورة في مقابلة البخل: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ «١». أي: الخير الكثير. وفي مقابلة ترك الصلاة.﴿فصلِّ﴾«٢».أي. دُم عليها. وفي مقابلة الرياء:﴿لربك﴾«٢».أي: لرضاه، لا للناس. وفي مقابلة منع الماعون: ﴿وانحر﴾«٢». وأراد التصديق بلحوم الأضاحي. قال: فاعتبر هذه المناسبة العجيبة.

«سورة الكافرون»

أقول: وجه اتصالها بما قبلها: أنه تعالى لما قال: ﴿فصل لربك﴾ أمره أن يخاطب الكافرين بأنه لايعبد إلا ربه، ولا يعبد ما يعبدون، وبالغ في ذلك فكرر، وانفصل منهم على أن لهم دينهم وله دينه.

«سورة النصر»

أقول: وجه اتصالها بما قبلها: أنه قال في آخر ما قبلها: ﴿ولي دين﴾. فكان فيه إشعار بأنه خلص له دينه، وسلم من شوائب الكفار والمخالفين، فعقب ببيان وقت ذلك، وهو مجيء الفتح والنصر، فإن الناس حين دخلوا في دين الله أفواجاً، فقدتم الأمر، وذهب الكفر، وخلص دين الإسلام ممن كان يناوئه، ولذلك كانت السورة إشارة إلى وفاته ﷺ [1].

وقال الإمام فخر الدين: كأنه تعالى يقول: لما أمرتك في السورة المتقدمة بمجاهدة جميع الكفار، بالتبري منهم، وإبطال دينهم، جزيتك على ذلك بالنصر والفتح، وتكثير الأتباع.

قال: ووجه آخر، وهو: أنه لما أعطاه الكوثر، وهو: الخير الكثير، ناسب

---

(١) أخرج البخاري هذاالمعنى في التفسير: ٢٢٠/٦، ٢٢١، عن ابن عباس: والإمام أحمد في المسند: ٢١٧/١، ٣٤٤، ٣٥٦. وابن جرير في التفسير: ٢١٥/٣٠.

تحميله مشقاته وتكاليفه، فعقبها بمجاهدة الكفار، والتبري منهم. فلما امتثل ذلك أعقبه بالبشارة بالنصر والفتح، وإقبال الناس أفواجاً إلى دينه، وأشار إلى دنوّ أجله، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال.

توقع زوالاً إذا قيل تم

« سورة تبت »

قال الإمام: وجه اتصالها بما قبلها: أنه لما قال: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ « ٦ ». فكأنه قيل: إلهي، وما جزائي؟ فقال الله له: النصر والفتح. فقال: وما جزاء عمـي الذي دعاني إلى عبادة الأصنام؟ فقال: ﴿تبت يدا أبي لهب﴾« ١ » الآيات.

وقدم الوعد على الوعيد ليكون النصر معللاً بقوله: ﴿ولي دين﴾. ويكون الوعيد راجعاً إلى قوله: ﴿لكم دينكم﴾. على حد قوله: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم﴾.

قال: فتأمل في هذه المجانسة الحافلة بين هذه السور، مع أن سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة[1]، والكافرون وتبت من أوائل ما نزل بمكة[2]، ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله، وبأمره.

قال: ووجه آخر، وهو: أنه لما قال. ﴿لكم دينكم ولي ديـن﴾ كأنه قيل: يا إلهي، ما جزاء المطيع؟ قال: حصول النصر والفتح. فقيل: وما ثواب العاصي؟ قال: الخسارة في الدنيا، والعقاب في العقبى، كما دلت عليه سورة تبَّت.

« سورة الأخلاص »

قال بعضهم: وضعت ههنا للوزان في اللفظ بين فواصلها ومقطع سورة تبَّت.

---

(١) أخرجه مسلم عن ابن عباس: ٢٤٢/٨، ٢٤٣. وفيها أنها آخر سورة نزلت.

(٢) الإتقان: ٩٦/١.

وأقول: ظهر لي هنا غير الوزان في اللفظ: أن هذه السورة متصلة بقل يا أيها الكافرون في المعنى. ولهذا قيل: من أسمائها أيضاً الإخلاص. وقد قالوا: إنها اشتملت على التوحيد، وهذه أيضاً مشتملة عليه. ولهذا قرن بينهما في القراءة في الفجر، والطواف، والضحى، وسنة المغرب، وصبح المسافر، ومغرب ليلة الجمعة [1].

وذلك أنه لما نفى عبادة ما يعبدون، صرح هنا بلازم ذلك، وهو أن معبوده أحد، وأقام الدليل عليه بأنه صمد، ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ولا يستحق العبادة إلا من كان كذلك، وليس في معبوداتهم ما هو كذلك.

وإنما فصل بين النظيرتين بالسورتين [2] لما تقدم من الحكمة، وكأن إيلاءها سورة تبت ورد عليه بخصوصه.

« سورة الفلق والناس »

أقول: هاتان السورتان نزلتا معاً، كما في الدلائل للبيهقي. فلذلك قُرنتا، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين، ومن الإفتتاح بقل أعوذ، وعقب بهما سورة الإخلاص، لأن الثلاثة سميت في الحديث بالمعوذات، وبالقوافل [3].

---

(١) أخرج الهيثمي في مجمع الزوائد عن ابن عمر: ١٢٠/٢ أن النبي ﷺ قرأ في الفجر سفراً بالكافرين والإخلاص. وأخرج ابن حجر في المطالب العالية: ٣٩٩/٣ عن النبي ﷺ يقول بضعاً وعشرين مرة: «نعم السورتان يقرأ في الركعتين: الأحد الصمد، وقل يا أيها الكافرون» وأخرج عن أبي يعلى من حديث جبير بن مطعم انه ﷺ أمره أن يقرأ: الكافرون، والنصر، والإخلاص، والمعوذتين (المصدر السابق: ٣٩٨/٣).

(٢) يعني بين (الكافرين والإخلاص) بالنصر وتبت.

(٣) الذي عثرت عليه حديث عبد الله بن خبيب عن أبيه قال: أصابنا طش وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ، فأخذ بيدي فقال: «قل. فسكت. فقال: قل. فقلت: ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثاً تكفك، كل يوم مرتين» (مسند الإمام أحمد: ٣١٢/٥ وأبو داود في الادب ما يقول إذا أصبح: ١٧٦/٢ والنسائي في الإستعاذة: ٢٥٠/٨. والترمذي في الدعوات: ٣٤٧/٩ وحديث أن النبي ﷺ كان يتعوذ بهن كل ليلة =

وقدمت الفلق على الناس ـ وإن كانت أقصر منها ـ لمناسبة مقطعها في الوزان لفواصل الإخلاص مع مقطع تبت [1].

وهذا آخر ما من الله به علي من استخراج مناسبات ترتيب السور، وكله من مستنبطاتي، ولم أعثر فيه على شيء لغيري إلا النزر اليسير الذي صرحت بعزوي له، فلله الحمد على ما ألهم، والشكر على ما من به وأنعم، سبحانك لاأحصيثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

ثم رأيت الإمام فخر الدين ذكر في تفسيره كلاماً لطيفاً في مناسبات هذه السور، فقال في سورة الكوثر:

أعلم أن هذه السورة كالمتممة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها.

أما الأول، فلأنه تعالى جعل سورة الضحى في مدح النبي ﷺ، وتفصيل أحواله، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته. ﴿ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى. ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾« ٣ - ٥ ». ثم ختمها بثلاثة أحوال من أحوال فيما يتعلق بالدنيا: ﴿ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى. ووجدك عائلاً فأغنى﴾« ٦ - ٨ ».

ثم ذكر في سورة « ألم نشرح » أنه شرفه بثلاثة أشياء: شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر.

ثم شرفه في سورة التين بثلاثة أشياء أنواع: أقسم ببلده، وأخبر بخلاص أمته من الناس بقوله: ﴿إلا الذين آمنوا﴾ « ٦ ». ووصولهم إلى الثواب بقوله: ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾« ٦ ».

ثلاث مرات (البخاري في فضائل القرآن: ٦/٢٣٣).

ونقل السيوطي عن السخاوي قوله: (وقوارع القرآن الآيات التي يتعوذ بها ويتحصن، سميت بذلك لإنها تقرع الشيطان وتقمعه كآية الكرسي والمعوذتين). الإتقان: ١/٢٠١. أما كلمة (القوافل) التي ذكرها المؤلف فلم نعثر عليها في الحديث النبوي ومصادره.

(١) مقطع الفلق (حسد) مناسب لفواصل الإخلاص (أحد. الصمد. أحد) ومقطع تبت (مسد) وكلها متفقة في الوزن.

وشرّفه في سورة أقرأ بثلاثة أنواع: ﴿أقرأ باسم ربك﴾. وقهر خصمه بقوله: ﴿فليدع ناديه. سندع الزبانية﴾ «١٨». وتخصيصه بالقرب في قوله: ﴿واسجد واقترب﴾«١٩».

وشرفه في سورة القدر بليلة القدر، وفيها ثلاثة أنواع من الفضيلة: كونها خيراً من ألف شهر، وتنزل الملائكة والروح فيها، وكونها سلاماً حتى مطلع الفجر.

وشرفه في ﴿لم يكن﴾ بثلاثة أشياء: أنهم خير البرية، وجزاؤهم جنات، ورضي عنهم.

وشرفه في الزلزلة بثلاثة أنواع: إخبار الأرض بطاعة أمته، ورؤيتهم أعمالهم، ووصولهم إلى ثوابها حتى وزن الذرة.

وشرفه في العاديات بإقسامه بخيل الغزاة من أمته، ووصفها بثلاث صفات.

وشرفه في القارعة بثقل موازين أمته، وكونهم في عيشة راضية، ورؤيتهم أعداءهم في نار حامية.

وفي ألهاكم التكاثر، هدد المعرضين عن دينه بثلاثة: يرون الجحيم، ثم يرونها عين اليقين، ويسألون عن النعيم.

وشرفه في سورة العصر بمدح أمته بثلاث: الإيمان، والعمل الصالح، وإرشاد الخلق إليه، وهو: التواصي بالحق والصبر.

وشرفه في سورة الهمزة بوعيد عدوه بثلاثة أشياء: ألا ينتفع بدنياه، ويعذبه في الحطمة، ويغلق عليه.

وشرفه في سورة الفيل بأن رد كيد عدوه بثلاث: بأن جعله في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، وجعلهم كعصف مأكول.

وشرفه في سورة قريش بثلاث: تألف قومه، وإطعامهم، وأمنهم.

وشرفه في الماعون بذم عدوه بثلاث: الدناءة، واللؤم في قوله. ﴿فذلك الذي يدع اليتيم. ولا يحض على طعام المسكين﴾«٢، ٣». وترك تعظيم الخالق في قوله:

﴿فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون. الذين هم يراءون﴾ « ٤ - ٦ ». وترك نفع الخلق في قوله: ﴿ويمنعون الماعون﴾ « ٦ ».

فلما شرفه في هذه السور بهذه الوجوه العظيمة قال: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾. أي: هذه الفضائل المتكاثرة المذكورة في هذه السور، التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها، فاشتغل أنت بعبادة ربك، إما بالنفس، وهو قوله. ﴿فصل لربك﴾ وإما بالمال، وهو قوله ﴿وانحر﴾ وإما بإرشاد العباد إلى الأصلح، وهو قوله: ﴿قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون﴾. الآيات. فثبت أن هذه السورة كالمتممة لما قبلها.

وأما كونها كالأصل لما بعدها فهو: أنه تعالى يأمره بعد هذه أن يكف عن أهل الدنيا جميعاً بقوله: ﴿قل يا أيها الكافرون﴾. إلى آخر السورة. ويبطل أذاهم، وذلك يقتضي نصرهم على أعدائهم، لأن الطعن على الإنسان في دينه أشد عليه من الطعن في نفسه وزوجه، وذلك مما يجبن عنه كل أحد من الخلق، فإن موسى وهارون أرسلا إلى فرعون واحد فقالا: ﴿إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ « ٢٠ : ٤٥ ». ومحمد ﷺ مرسل إلى الخلق جميعاً. فكان كل واحد من الخلق كفرعون بالنسبة إليه. فدبر اللّه في إزالة الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً، بأن قدم هذه السورة، وأخبر فيها بإعطائه الخير الكثير، ومن جملته أيضاً: الرئاسة، ومفاتيح الدنيا، فلا يلتفت إلى ما بأيديهم من زهرة الدنيا، وذلك أدعى إلى مجاهدتهم بالعداوة، والصدع بالحق، لعدم تطلعه إلى ما بأيديهم.

ثم ذكر بعد سورة الكافرين سورة النصر، فكأنه تعالى يقول: وعدتك بالخير الكثير، وإتمام أمرك، وأمرتك بإبطال أديانهم، والبراءة من معبوداتهم، فلما امتثلت أمري أنجزت لك الوعد بالفتح والنصر، وكثرة الأتباع، بدخول الناس في دين اللّه أفواجاً.

ولما تم أمر الدعوة والشريعة، شرع في بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن.

وذلك أن الطالب إما أن يكون طلبه مقصوراً على الدنيا، فليس له إلا الذل

والخسارة والهوان، والمصير إلى النار، وهو المراد من سورة تبت. وإما أن يكون طالباً للآخرة، فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التي تنتقش فيها صور الموجودات.

وقد ثبت أن طريق الخلق في معرفة الصانع على وجهين: منهم من قال: أعرف الصانع، ثم أتوسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته، وهذا هو الطريق الأشرف، ومنهم من عكس[1]، وهو طريق الجمهور.

ثم إنه سبحانه ختم كتابه المكرم بتلك الطريقة التي هي أشرف. فبدأ بذكر صفات اللّه، وشرح جلاله، في سورة الإخلاص. ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في الفلق، ثم ختم بذكر مراتب النفس الإنسانية في الناس، وعند ذلك ختم الكتاب. فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة في كتابه المكرم. هذا كلام الإمام.

ثم قال في سورة الفلق: سمعت بعض العارفين يقول: لما شرح اللّه سبحانه أمر الإلهية في سورة الإخلاص، ذكر هاتين السورتين عقبها في شرح مراتب الخلق على ما قال: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾.

فعالم الأمر كله خيرات محضة، بريئة عن الشرور والآفات، أما عالم الخلق فهو الأجسام الكثيفة، والجسمانيات. فلا جرم قال في المطلع: ﴿قل أعوذ برب الفلق. من شر ما خلق﴾ «١، ٢».

ثم الأجسام إما أبدية، وكلها خيرات محضة، لأنها بريئة عن الاختلافات والفطور، على ما قال: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ «٦٧ : ٣». وإما عنصرية، وهي إما جمادات، فهي خالية عن جميع القوى النفسانية، فالظلمات فيها خالصة، والأنوار عنها زائلة، وهو المراد

---

(١) طريق الجمهور يترتب عليه: أن تكون المخلوقات دليلاً على وجود الخالق. وطريق الخاصة يترتب عليه أن يكون الله دليلاً على وجود خلقه. الأول معرفة صعودية، والثاني معرفة نزولية.

من قوله: ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ «١١٣: ٣». و إما نبات، والقوة العادلة هي التي تزيد في الطول والعمق معاً، فهذه القوة النباتية كأنها تنفث في العقدة. وإما حيوان، وهو محل القوى التي تمنع الروح الإنسانية عن الإنصباب إلى عالم الغيب، والإشتغال بقدس جلال اللّه، وهو المراد بقوله: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾.

ثم إنه لم يبق من السلفيات بعد هذه المرتبة سوى النفس الإنسانية، وهي المستفيدة، فلا يكون مستفاداً منها، فلا جرم قطع هذه السورة، وذكر بعدها في سورة الناس مراتب ودرجات النفس الإنسانية، انتهى.

ولم يبين المراتب المشار إليها. وقد بينها إبن الزملكاني في أسراره[١] فقال:

إضافة [رب] إلى [الناس] تؤذن بأن المراد بالناس: الأطفال، لأن الرب من: رَبَّه يربهُّ، وهم إلى التربية أحوج. وإضافة [ملك]إلى [الناس]. تؤذن بإرادة الشباب به، إذ لفظ [ملك] يؤذن بالسياسة والعزة، والشبان إليها أحوج. وإضافة [إله] إلى [الناس] تؤذن بأن المراد به الشيوخ، لأن ذاته مستحقة للطاعة والعبادة، وهم أقرب. وقوله: ﴿يوسوس في صدور الناس﴾ يؤذن بأن المراد بالناس: العلماء والعباد، لأن الوسوسة غالباً عن الشَّبه. وقوله: ﴿من الجنة والناس﴾ يؤذن بأن المراد بالناس: الأشرار. وهم شياطين الانس الذين يوسوسون لهم. واللّه تعالى أعلم[٢].

تم بحمد اللّه تعالى وتوفيقه

قال مؤلفه نفعنا اللّه ببركاته، وأمدنا من نفحاته: فرغت من تأليفه يوم الأحد، الثالث عشر من شعبان سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة. ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل.

---

(١) هو كتاب: «نهاية التأميل في أسرار التنزيل» خط (٤٧١) تفسير تيمور بدار الكتب المصرية.

(٢) ذكر تاج القراء الكرماني هذه المعاني مختصرة في أسرار التكرار في القرآن: ٢١٥ ولم ينسبها إلى أحد ولم يشر ابن الزملكاني إلى الكرماني رغم تأخره عنه.

مصادر التحقيق

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

٣ ـ ارشاد الرحمن في الناسخ والمنسوخ والمتشابه وأسباب النزول وتجويد القرآن للأجهودي (خط) الأزهرية بمصر.

٤ ـ أسرار التكرار في القرآن لتاج القراء الكرماني. طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٥ ـ الأمد الأقصى لأبي زيد الدبوسي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٦ ـ البدر الطالع للشوكاني.

٧ ـ بغية الوعاة في طبقات النحاة للسيوطي.

٨ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

٩ ـ تفسير البيضاوي.

١٠ ـ التكملة لابن الأبار.

١١ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

١٢ ـ جامع البيان لابن جرير الطبري.

١٣ ـ حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي (خط) دار الكتب المصرية.

١٤ ـ خواص القرآن الكريم لأبي حامد الغزالي.

١٥ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني.

١٦ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي.

١٧ ـ سنن أبي داود.

١٨ - سنن الترمذي.
١٩ - سنن النسائي.
٢٠ - سنن الدارمي.
٢١ - سنن ابن ماجة.
٢٢ - سيرة النبي ﷺ لابن هشام.
٢٣ - شذارت الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد.
٢٤ - شعب الإيمان للبيهقي. تحت الطبع لدى دار الكتب لعلمية.
٢٥ - شرح الكشاف للطيبي (خط) الأزهرية بمصر.
٢٦ - صحيح البخاري.
٢٧ - صحيح مسلم.
٢٨ - الضعفاء والوضاعون لابن الجوزي (خط) الأزهرية.
٢٩ - الضعفاء لشمس الدين الذهبي.
٣٠ - طبقات القراء للجزري.
٣١ - العلل المتناهية في الأحاديث الواهية لابن الجوزي نشرته دار الكتب العلمية.
٣٢ - الكشاف عز حقائق التنزيل للزمخشري.
٣٣ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمي.
٣٤ - ميزان الإعتدال للذهبي.
٣٥ - المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري.
٣٦ - مسند الإمام أحمد بن حنبل.
٣٧ - المطالب العالية في زوائد المسانيد الثمانية لابن حجر العسقلاني.
٣٨ - مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي.
٣٩ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (خط) الأزهرية بمصر (مطبوع في الهند).
٤٠ - نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلاني.
٤١ - وفيات الآعيان لابن خلكان.

فهرس الحديث النبوي والآثار

الحديث	الصفحة
١ ـ آخر ما نزل من القرآن المائدة	٨٣
٢ ـ اشارة سورة النصر الى وفاته ﷺ	١٤٥
٣ ـ أعطيت مكان التوراة السبع الطوال.. الحديث	٥٨
٤ ـ أمر رسول الله ﷺ ان يقرأ بالسموات في العشاء	١٣٥
٥ ـ انا أنزلنا المال لاقامة الصلاة وايتاء الزكاة.. الحديث	١٤١
٦ ـ انهن من العتاق الأول، وهن من تلادى	٥٨
٧ ـ الأنعام شيعها سبعون ألف ملك	٨٦
٨ ـ البقرة سنام القرآن وذروته	٨٦
٩ ـ البقرة فسطاط القرآن	٦٩
١٠ ـ التأمين في آخر البقرة	٧٠
١١ ـ تفسير لهو الحديث بالغناء والملاهي	١١١
١٢ ـ التوراة في خمس عشرة آية من سورة بني اسرائيل	٩٩
١٣ ـ الجبار الذي أراد أن يصعد السماء بالنسور	٩٨
١٤ ـ خاتمة القصص اشارة الى هجرة النبي ﷺ	١٠٩
١٥ ـ خلاف الصحابة فيمن رجع من المنافقين يوم أحد	٧٧
١٦ ـ الرعد اسم ملك	٩١
١٧ ـ سبحان الذي وسع سمعه الأصوات	١٢٢
١٨ ـ سبب نزول آخر سورة المجادلة	١٢٢
١٩ ـ سبب نزول أول سورة الحشر	١٢٢

محتويات الكتاب

